الفصل الثالث:

العنصرية بين لغتين
عرضٌ ونقد

داروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العنصري العلمي!) بين نصرانية الغرب وإسلام الشرق

يتجلى تاريخ الأمم وقيمها في مفرداتها اللغوية. واللغة الإنجليزية (كاللغة العربية) متأثرةٌ بمحيطها وبيئتها؛ ثم إنّ تاريخها مرتبط جداً بتاريخ الغرب وثقافته وتطوره عبر العصور.

في بريطانيا، كتب عالم الاقتصاد البريطانيّ توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦–١٨٣٤) «مقالة في مبدأ التكاثر السكانيّ» عام ١٧٩٨؛ يرى فيها أنّ خطط التطور المطرد للمجتمع المثاليّ تنتكس بسبب أخطار النمو السُكاني: «إنّ قوة التكاثر السكانيّ أكبر كثيراً من قدرة الأرض لإنتاج رزق الإنسان؛ لذا فالتكاثر السكانيّ إذا ما استمر دون توقف، يزداد بمتوالية هندسيّة. في حين أن الرزق يزداد بمتوالية حسابيّة. ومعرفة بسيطة بالأرقام توضح ضخامة القوة الأولى إذا ما قورنت بالثانية». ويرى مالثوس، وهو رجل دين في الكنيسة الإنجليزية (إنجليكاني) وزميل كلية عيسى المسيح (انتخب زميلاً لها عام ١٧٩٣)، أن مجتمعات المُساواة الحرة عُرضة للانفجار السكاني. يصفها مالثوس بتعبير دراميّ مثير: «تكتسح الأوبئة الجائحة والأمراض المميتة والطاعون على نحو مروّع لتهلك الآلاف وعشرات الآلاف منهم. فإذا لم تنجح هذه تماماً، فإنّ موجات المجاعة (والحروب) تأتي متأخرة، وبضربة قاضية واحدة، تقوّض منسوب التعداد السكانيّ وتعدّله ليتساوى مع منسوب الغذاء في العالم». وانتقد مالثوس قوانين دعم الفقراء، وعدّ أن تكاثر السكان ينضبط متناسباً مع حدود الموارد المتوافرة بنوعين من الضوابط: الضوابط الإيجابية، التي ترفع نسبة الوفيات (كالمجاعة والأمراض والحروب)، وضوابط سلبية، تخفّض نسبة الولادات، كالإجهاض، وتحديد النسل، والبغاء، وتأجيل الزواج، والعزوبية (الامتناع عن التناسل).

ناقش مالثوس في أنّ التكاثر السكاني يفوق اعتيادياً موارد الغذاء، مما يؤدّي من ثم إلى موت الأضعف جوعاً، وهو ما يسمّى بفاجعة أو أزمة مالثوس. ولا يزال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي لأميركتين وقتل سكانها الأصليين على أنه جاء نتيجةً لأزمة مالثوس!!!

وفي الوقت الذي عدّ الآخرون زيادة الإخصاب ذا فائدة اقتصادية (لازدياد عدد العمال المتاحين للعمل)، وقف مالثوس مناقضه لأنه اعتقد أن الإخصاب بالرغم من رفعه للإنتاج الإجمالي، إلا أنه يخفض الإنتاج للرأس الواحد من العمّال. ثم إنه ناقش في أنّ فرص العمل تزداد بزيادة تعداد السكان، ولكن ببقاء حاجة العمل ثابتة، فإنّ ذلك يؤدي إلى هبوط أجور العمّال مما يؤدي أخيراً إلى تقليل إعالة العيش، حيث تتساوى حينذاك نسبة الولادة مع نسبة الوفاة، مما يؤدي من ثم إلى توقف النمو السكاني. لكن تقديرات مالثوس حول ثبوت حاجة العمل في إنجلترا كانت خاطئة، لأنه أهمل تأثيرات الثورة الصناعية التي زادت كثيراً في منسوبات التقنية والإنتاج ومؤدية إلى زيادة الحاجة إلى العمل لقبوّ مالثوس. لمستقبل كان خطأ.

واعتزم مالثوس الإلغاء التدريجي لقوانين الفقراء بتخفيض عدد الأفراد المؤهلين للإعانة (تاركاً إعانتهم في ذلك للمؤسسات الخيرية وفي الضرورة القصوى). وبرّر ذلك أن إعانة الفقراء تقف في وجه مصالحهم أنفسهم عن طريق تخفيض عدد العمّال ومن ثمّ رفع أسعار السلع وتقويض استقلالية ومرونة تكيف المُزارعين. وبمعنى آخر، فإنّ (قوانين الفقراء) تؤدي إلى «خلق طبقة من الفقراء وتحافظ عليها».

وقام بدعم قوانين الحبوب، التي أدخلت نظاماً من الضرائب البريطانية المفروضة على القمح المستورد. واعتقد مالثوس أنّ هذه الوسائل تشجع الإنتاج الوطني، وتعزز الفائدة على المدى البعيد. وناقش مالثوس أنّه بتشجيع الإنتاج الوطني، فإنّ قوانين الحبوب ستضمن لبريطانيا الاكتفاء الذاتي في الغذاء.

مساوئ نظرية مالثوس:

تنبأ مالثوس بأزمة سكانية تنفجر في أواسط القرن الـ ١٩، ولكن لم يحدث شيء. ثم تنبأ أنصار مالثوس الجدد في كتابهم (قيود النمو) لعام ١٩٧٢ بأزمة مستقبلية أخرى، كذلك كانت نبوءة خاطئة.

كذلك فإنّ محاولات الحدّ من النمو البشري عن طريق تنظيم الأسرة هي محاولات تداخلية جراحية، وأحياناً قسرية وحشية (مثل عمليات العقم على نطاق واسع، أو سياسة الطفل الواحد المتبعة في الصين) وغالباً ما يرفضها الناس بالفطرة.

وحديثاً صارت ظاهرة «**تأنيث الطبيعة**» (بسبب التلوّث الكيميائي الواسع للكون) مثل الوباء الجائح، متسببة انتشار العقم كمرض الطاعون (انظر كتاب ديبورا كادبوري: **تأنيث الطبيعة** طبعة حامش هاملتون (بنجوين) لندن ١٩٩٧).

ثم إن مجلة "**إيكونومست**" (إصدار تشرين الأول/ تشرين الثاني ٢٠٠٩، ص٣٥-٣٨) نشرت مقالاً عن "**انخفاض الخصوبة وكيف أنّ مشكلة السكان تحلّ نفسها بنفسها**"، وأنها ستهبط أعداد العالم المتوقعة ٩.٢ مليار نسمة عام ٢٠٥٠ إلى ٨.٥ مليار نسمة. وتربط المقالة بين ثراء الأسر وبين هبوط الخصوبة، (والعكس صحيح)؛ فتنصّ على أنّ الثراء يقلل الخصوبة، ثم إن قلة الخصوبة تسبّب الثراء.

إنّ استعمار الأوروبيين العالم الجديد وهم مندفعون برؤية مالثوس، تسبب بجشع لا يُشبع في حبهم موارد الغذاء، وطمع بالمال بلا حدود، وحبّ جبروت القوة، والتسلط على الآخرين (وكأنه حق الولادة لأفراد الجنس الأبيض المتفوق- انظر تحت).

في الواقع إنّ استعمار العالم الجديد قد أدى أولاً إلى إبادة سكان أمريكا الأصليين مما تسبّب بدوره بنقص حادّ في عدد الرجال العاملين، مع ازدياد الحاجة الماسة إلى استيراد الأفارقة العبيد (الذين شرّدوهم من ديارهم) من أجل حلّ مشكلات **المُستعمرات الزراعية** لتزريع، وعلى مستوى واسع، الغلّات المختلفة: القطن، القهوة، التبغ، قصب السكر، سيزال (ليف أبيض متين تتخذ منه الحبال)، أنواع البذور الزيتية، أشجار المطاط.

لقد كانت الحاجة ماسة إلى ملايين العبيد من أجل تحقيق أحلام المستعمرين التصنيعية، فمثلاً إنشاء "قناة أناما" لوحدها أدّى لوفيات هائلة وموت ٢٨٠٠٠ عامل (بسبب الحمى الصفراء والملاريا، والانجرافات الطينية).

في الواقع، إنّ المشكلة لا تكمن في ازدياد النمو السكاني (كما يعتقد أنصار مالثوس)، ولكنها تكمن في سوء التوزيع الجائر بين السكان. والأهم من ذلك فإنّ التخطيط الجيد يؤدي اعتيادياً إلى وفرة إنتاج الغذاء: بكلمة أخرى فإنّ أساس المشكلة يكمن في وفرة **الإنتاج وسوء التوزيع**. إنّ حصة الفرد الواحد من الغذاء، ووجبات الطعام البشرية قد صارت اليوم أكبر من ذي قبل؛ حتى صارت السُمنة المفرطة اليوم داءً مستشرياً كالوباء الجائح في العالم.

وحقيقةً، فإنّ وسائل الإعلام قلقة بشأن **جبال الزبد والجبن المخزّن**، الذي ماع وتلاشى أو صارَ نفايات (تُرمى في البحر) كل ذلك من أجل تثبيت ورفع أسعار السلع، بحسب قوى السوق في العرض والطلب. كذلك، فإنّ هناك **جبال الحبوب** (من القمح والشعير والشوفان)، **وبحيرات من الحليب والعسل** (هذا عدا بحيرات الخمر)؛ ولم يوزّع شيءٌ من هذا الفائض الغذائي الهائل بالتساوي داخلياً، ولا هو أُرسِلَ إلى الأقطار الفقيرة لتخفيف معاناتها.

بالرغم من مساوئ نظرية مالثوس العديدة، لكن مالثوس أثّر في السياسيين وصنّاع القرار في العالم الجديد لاهتمال حروب كوسيلة لتخفيض سكان الأعراق الرديئة لمصلحة العرق الأوروبي الأبيض المتفوق (مُعزّزاً بذلك نظرة مركزية أوروبـ للعالم). والحقيقة أنّ نظرية مالثوس أثرت في سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية (كان جيمس ميل، الحاكم العام للشركة الذي شغل منصبه ١٨٢٨–١٨٣٥ صديقاً حميماً ومُعجباً كبيراً بـ مالثوس). ثم إنّ رئيس الوزراء البريطاني وليم بت الصغير (الذي شغل منصبه ١٧٨٣–١٨٠١ وأيضاً ١٨٠٤–١٨٠٦) كان أحد المُيسّرين المتأثرين بـ مالثوس. فبعد قراءته لكتابات مالثوس سحب فجأةً قراره الذي قدّمه لتمديد إعانة الفقراء!!! وما زال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي لأمريكا وقتل سكانها الأصليين على أنه جاء نتيجة لأزمة مالثوس!!!

والأهم من ذلك كله أنّ نظرية مالثوس الاجتماعية صارت بمنزلة قانون الاقتصاد الاجتماعيّ وهي التي أثرت في استحداث فكرة البقاء للأصلح، المصطلح المرتبط بعالم علوم الإنسان (الأنثروبولوجي) هربرت سبنسر (١٨٢٠–١٩٠٣)، أو أنه مرتبط بنظرية «إنجيل الثروة» لكاتبه أندرو كارنيجي (كانت لجنة كارنيجي هذا معنية بمشكلة الرجل الأبيض المسكين (!) في جنوب إفريقيا، ومن ثم لعبت دوراً رئيساً في إقامة سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا).

ثم كان مصطلح سبنسر: **البقاء للأصلح** هو الذي ألهمَ شارلس دارون وألفريد راسيل والاص في استحداث نظريتهما حول «**الانتقاء الطبيعي**» «**النظرية التطور**». ففي ١٨٥٧ حرّرَ سبنسر عمله الكبير: «**التقدّم: قوانينه وأسبابه**» بسنتين قبيل نشر دارون كتابهُ: عن أصل الأنواع المطبوع عام ١٨٦٠. كان سبنسر ودارون متعاصرين، بل كانا صديقين حميمين. فلقد قام سبنسر (المُعاصر لدارون) بدوره باستخدام نظرية التطور البيولوجي لدارون أخيراً في ١٨٧٠، مُستحدثاً مفهومَ «**تطور الطبقات الاجتماعي**» في محاولة لإضفاء صبغة علمية على التفكير الاجتماعي. ثم طبّق سبنسر ما استحدثه من «التطور الاجتماعي» مُسقطاً إياه على جميع مناحي وفعاليات الإنسان، واعداً برؤيته التفاؤلية لمستقبل أفضل. ومن ثم امتزجت نظرية «التطور الاجتماعي» لسبنسر بالنظرية البيولوجية (الحياتية) للتطور في تقديم مفهوم جديد (خاطئ) هو: «**دارونية الطبقات الاجتماعية**».

الحقيقة أنّ عمل مالثوس عام ١٧٩٨ «**مقالة في مبدأ التكاثر السكاني**» قد شاع على نطاق واسع لا يُصدّق، فقد قرأه جميع مُنظري الدارونية الاجتماعية. فقد قرأ كلٌّ من شارلس دارون، وألفريد راسيل والاص لـ مالثوس واعترفا بالدور الذي لعبه مالثوس في تكوين أفكارهما. قرأ دارون مقالة مالثوس في مبدأ التكاثر السكاني عام ١٨٣٨، أي بعد أربع سنوات من وفاة مالثوس. ويشير دارون إلى مالثوس على أنّه الفيلسوف العظيم، فقد قال: «**مبدأ مالثوس هذا ينطبق بقوة مُضاعفة على ممالك الحيوان والنبات، لأنه في هذه الحالة لا يوجد ازدياد صناعي لموارد الغذاء، وليس هناك انضباط عاقل للزواج**». وكما قرر والاص: «**لكن ربما كان أهمّ كتاب قرأته هو كتاب مالثوس حول مبدأ التكاثر السكاني**».

ومن ثم اقترح ابن عم دارون فرانسيس جالتون في عام ١٨٦٥ وعام ١٨٦٩ قيام **علم تحسين النسل** (سمّاها: **يوجينيكس**)، وكلمة يو–جينيكس مشتقة من الكلمة الإغريقية: يو (بمعنى جيّد) ولاحقة: جينيكس (استيلاد) التي استحدثها السير فرانسيس جالتون عام ١٨٨٣ وعرّفها أنها «**دراسة جميع القوى الإدارية تحت السيطرة البشرية لتحسين أو إضعاف نوعية العرق البشري لأجيال المستقبل**». وناقش جالتون في أنه مثلما تتوارث المواصفات الجسدية الفيزيائية بوضوح في الأجيال البشرية، فكذلك الصفات العقلية (كالعبقرية والموهبة). وناقش جالتون في أن

اخلاقيات المجتمع يجب أن تتغير حتى تكون عملية الوراثة قراراً واعياً مقصوداً، من أجل تفادي التوالد الكثير لأفراد المجتمع «الأقل صلاحية وكفاءة» والتوالد القليل للأفراد «الأكثر صلاحية وكفاءة». وفي رؤية جالتون، فإنّ المؤسسات الاجتماعية، مثل: ملاجئ المعوقين ومصحات المجانين إنما تسمح ببقاء وديمومة البشر الرديء الدون بمستويات أسرع من البشر المتفوق في المجتمع الجدير بالاحترام، واذا لم تُتّخذ إجراءات التصحيح، فإنّ المجتمع سرعان ما يكون مغموراً بالرديء الدون.

والفقرة الآتية لـ مالثوس توضح تأثيره في جالتون، حيث يقول مالثوس (في كتابه «مقالة في مبدأ التكاثر السكانيّ» عام ١٧٩٨، الفصل التاسع، ص ٧٢) وهو يقترح طرائق تربية الحيوان التي يمكن تطبيقها على الإنسان، قبل فكرة فرانسيس جالتون التي سمّاها من بعد «يو-جينيكس» (تحسين النسل) عام ١٨٨٣:

(لا يبدو.. على أي حال أنّ الاهتمام بتوليد سلالة محسنة بعض الشيء (بما يشبه استحداثه في الحيوانات) أمراً عسيراً لا يمكن استحداثه بين بني الإنسان. قد يكون انتقال الذكاء أمراً مشكوكاً فيه: لكن مواصفات الضخامة والقوة، والجمال، والبشرة، وربما طول العمر يمكن نقلها إلى حد ما... ولمّا كان العرق البشريّ لا يمكن تحسينه دون شجب وإجبار جميع العيّنات الرديئة للتبتل والعزوبية (الامتناع عن التناسل)، لا يمكن تعميم هذا التوالد كأمر عامّ).

وهذه النظريات المُنادية بال «العرق المتفوّق»، وهو عادة عرق «نورديك» (سكان شمال أوروبا من الجرمن والإسكندنافيين) والعرق «الآريّ» مع تحسين النسل (يوجينيكس)، التي ابتكرها سير فرانسيس جالتون (مع آخرين) وأشاعها مع مطلع القرن العشرين، كان لها التأثير الأساسيّ البارز في سياسات النازية العرقية وبرنامجهم في تحسين النسل (يو-جينيكس).

طوّر جالتون علم يوجينيكس (تحسين النسل) وميداه الأساس هو «السيطرة» وتعزيز القياسات النوعية والتحليلية لـ «السمات المرغوبة» لأجل إعداد دليل مُرشد لكيفية الحصول على «النسل الممتاز حقاً» إضافةً إلى آرتو دي جوبينيو (أحد مؤسسي العنصرية البيولوجية) مؤلف «مقالة في التباين في الأعراق البشرية» عام ١٨٥٣، فمؤلفات التمييز العرقي العلمي الأخرى التي أثرت كثيراً في النازية تشمل أيضاً: ماديسون جرانت، مؤلف «عبور العرق العظيم» عام ١٩١٦/١٩٢٤، مع لوثروب ت. شتودارد، مؤلف «ارتفاع مدّ اللون ضدّ تفوق العالم الأبيض» عام ١٩٢٠. وفي الأغلب، فإنّ التمييز العرقي العلميّ كان وصمة عار أعطيت أحياناً للنظريات والمقترحات الحديثة التي تدّعي أنّ الدليل العلمي قد وضّح فروقاً بالغة الأهمية في التطور بين الأعراق والمجاميع الأثنية.

لقد قرأ داروين كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون.

وفي ألمانيا فإنّ فريدريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) المُعاصر لـ مالثوس قد ضمّن وصفاً تطوّرياً قوياً للتاريخ في كتابه: (محاضرات في فلسفة التاريخ)، مصوّراً تطوير ما يسميه "جيست" (بمعنى الروح أو العقل) في التاريخ عبر سلسلة تتجسد في روحانية/ عقلية الشعب (فولك-جيست). فلسفة هيجل في التاريخ كانت واضحة التحيّز لمصلحة أوروبا، والدولة البروسية خصوصاً، التي جعلها كانجاز التاريخ العظيم (نهاية التاريخ). وفي فصل عن الأساسات الجغرافية للتاريخ العالمي، كتب هيجل أنّ «كل شعب يمثل درجة متميزة في تطوير الروح»، وبذلك تكون «الأمة». ولكن فكرة الأمة هذه لا ترتبط بوضوح بالمعطيات الجسدية الفيزيائية أو العرقية، بل هي معنية بالتاريخ المحسوس (الملموس) والموقع الجغرافي حيث تترعرع الروح. وكان متأثراً كالآخرين، بنظرية مونتيسكيو حول تأثير المناخ في العادات والقانون، التي كوّنها الأخير في كتابه: الروح والقوانين (١٧٤٨)، فبذلك يكتب هيجل:

«صحيح أنّ المناخ له تأثير، لكن المناطق الحارة والمناطق الباردة ليست هي الأفضل لحرية الإنسان ولظهور الشعوب ذات التاريخ الأفضل. (أي من بين الشعوب التي تملك تاريخاً، مقارنةً بـ "الهمج" الذين يُقال: إنه ليس لهم تاريخ)». لذلك لا يُستغرب تفضيل هيجل المناطق المعتدلة المناخ لزعزعة الروح (جيست) فيها.

وأخيراً رسم هيجل صورةً للتاريخ العالمي، الذي يبتدئ من عالم الشرق، ثم قدماء الإغريق، ثم الرومان، ثم العالم النصراني، منتهياً بالعالم البروسيّ. وفي دروسه هذه، كتب هيجل أنّ «أمريكا هي أرض المستقبل» لكن «الفلسفة لا توّرط نفسها بالتنبوءات». من العجيب أنّ فلسفة هيجل، مثل فلسفة "كانت" في هذا المجال، لقد اختزلت التاريخ على نحو جازم إلى تصريحات في التطوّر. لقد مورست يوجينيكس (تحسين النسل) قبل جالتون، ومنذ بداية التاريخ في الحضارات القديمة، مثلاً في روما وأثينا. وعلى وجه الخصوص فإنّ سپارته مارست وأد الأطفال بتعريضهم في منطقة "أبوثيتي" قرب جبل تايجيتوس. وشملت الاختبارات على حديثي الولادة اغتسالهم بالخمر وتعريضهم لعناصر أخرى. بالنسبة لـ سپارته، فإنّ ذلك في اعتقادهم يضمن لهم بقاء وانجاب الأقوى فقط. عدّ أدولف هتلر أنّ سپارته هي أول «دولة روحانية»، مثل إرنست هيجل قبله الذي أثنى على سپارته بسبب طرقها البدائية في ممارسة يوجينيكس (تحسين النسل) عبر سياسة وأد الأطفال الانتقائية.

والعجيب أنّ خلفية هيجل كانت خلفية دينية؛ فقد حصل على شهادة في علوم الدين، ومن بعدها وفي أثناء المدة ١٧٩٣–١٧٩٦، ألف كرّاسةً تعرف بـ «حياة عيسى»، ثم ألّف أطروحة بحجم الكتاب بعنوان «إيجابية الدين النصراني». وبعدها وفي فرانكفورت ألف هيجل مقالة أخرى بعنوان: «مقتطفات من الدين والحب». وفي ١٧٩٩، كتب مقالة أخرى بعنوان «روحانية الدين النصرانيّ ومصيرها» لم تنشر في أثناء حياته.

ثلاثية لهيجلية: بتأثره بسابقيه من فلاسفة الألمان (مثل: كانت وفيخته)، فإنّ جدليّة هيجل تتميّز بعملية ذات ٣ خطوات: «الفرضية – النقيضة – الاصطناع»؛ أي أنّ الفرضية (مثلاً: الثورة الفرنسية) ستتسبب بنقيضتها (مثلاً: حكم الملك الإرهابي)، ومن ثم ستؤدي إلى الاصطناع (مثلاً: دولة المواطنين الأحرار الدستورية). والخطأ في طريقة «الفرضية–النقيضة–الاصطناع» أنها تعطي إحساساً أن الأشياء والأفكار تُنتقض وتُعاكس من أشياء تأتي من خارجها. فمثلاً الثورة الفرنسية تمثل لهيجل إدخال حرية الأفراد السياسية الحقيقية إلى المجتمعات الأوروبية أول مرة في التاريخ المُدوّن. وبالضبط فكونها بدءاً بهذه الطريقة المطلقة فقد كانت متطرفة بطريقة مطلقة؛ فمن جهة كان إفراط العنف المطلوب لإنجاز الثورة لا يمكن إيقافه ذاتياً، ومن جهة أخرى فالثورة قد التهمت معارضيها تماماً. فالثورة إذن لا ملجأ لها سوى نتائجها هي وحدها؛ أي إنّ الحرية المكتسبة بعد الشدائد قد بددتها سلطة الإرهاب الوحشية.

كان أسلوب هيجل الفلسفي في الكتابة صعباً في فهمه وتفسيره؛ فهو يوصف من قبل بيرتراند راسيل البريطاني في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) أنه أصعب فيلسوف يمكن أن يُتهم. وربما كان ذلك إلى حد ما لأنّ هيجل حاول تطوير طريقة جديدة في التفكير والمنطق، الذي يُسمّيه هو «التفسير التأمّلي السببيّ» والذي يشمل المفهوم الأشهر «الديالكتيكي»؛ أي الجدلي، في محاولة للتغلب على ما يراه كقيود لكل من البديهية البسيطة والفلسفة التقليدية حول العلاقة بين الفكر والواقع.

إرنست هنريخ فيليب أوغست هيجل (١٨٣٤–١٩١٩) عالم الطبيعة والحياة، الفيلسوف والطبيب والرسّام الفنان والبروفيسور الألماني، الذي اكتشف ووصف وصنف آلاف الأنواع، ورسم شجرة أنساب كل أنواع الحياة. بوصفه فيلسوفاً، كتب إرنيست هيجل كتابه «لغز الحياة» عام ١٨٩٥–١٨٩٩ (والمترجم للإنجليزية عام ١٩٠١) و«حرية العلم والتعليم» لدعم تعليم التطور.

تأثرت أفكار هيجل السياسية باللاماركية (انظر تحت). اعتقد هيجل أن المواصفات العرقية تكتسب عبر التفاعلات مع محيط البيئة وأنّ التطور العرقي يتابع التطور الفردي بطريقة مباشرة. كان هيجل عالم حيوانات ورسّام إيضاح بارع ثم صار بروفيسوراً في علم التشريح المقارن. بالرغم من أنّ أفكار هيجل كانت مهمة لتاريخ التطور، وكان عالم تشريح مؤهل في اللافقريات وعمله في راديولا خصوصاً، إلاّ إنّ مفاهيمه التأملية (التنبئية) التي ناصرها تُعدّ الآن خاطئة. فمثلاً، وصف هيجل وسمّى كائنات مجهرية كأسلاف لنا لم يُثبت منها شيئاً ألبتة. وكان من الأوائل الذين عدّوا علم النفس فرعاً من فروع علم الفسلجة (الوظائف). واعتزم تسمية العديد من المصطلحات المهمة في كل المجالات مثلاً: الشعبة، والتاريخ النوعي، وعلم البيئة.

لم يدعم هيجل الانتقاء الطبيعي (لدارون ووالاس)، ولكنه آمن بنظرية لامارك: أي توريث الصفات المكتسبة (اللاماركية) مثلاً: اعتقاد لامارك أن "**الظبية**" حين تتطلع بعنقها لأكل الأشجار العالية، تكتسب صفة طول العنق التي تتوارثها من بعد لتصير "**زرافة**". وقد دعم نظريته بالرسوم الجنينية التي كانت مبسّطة بإفراط (إلى حدّ الخطأ) وبعضها غير دقيقة، لذا تُعدّ نظريته اليوم تبسيطاً مُفرطاً (إلى حدّ التشويه) لعلاقات معقدة للتركيب جداً وأدخل هيجل مفهوم «هيترو كروني» وهو التغير الزمني للتطور الجنيني عبر مراحل التطور.

كان لهيجل شخصية وهّاجة. لكنه كان أحياناً يقفز بعيداً (وبأسلوب غير علمي) عن الدليل الموجود. مثلاً عند ظهور كتاب دارون عن أصل الأنواع بوساطة الانتقاء الطبيعي (١٨٥٩)، لم توجد بقايا إنسان قديم. لكن هيجل افترض وجود دليل تطور الإنسان في الهند الغربية الهولندية (إندونيسيا اليوم)، ووصف هذه البقايا النظرية بتفصيل طويل. وادّعى هيجل أنّ تطور الإنسان يمرّ بـ ٢٢ مرحلة بالضبط، والخطوة الـ ٢١ –هي «**الحلقة المفقودة**»– كخطوة تتوسط بين القردة والبشر. بل إنّه سمّى رسمياً هذه الحلقة المفقودة التي لا وجود لها: بيثيكانثروبوس آلالوس، وترجمتها: «**الإنسان القرد الذي لا يتكلم**» وطالب تلاميذه (ريشارد مع أوسكار هيرتويج) بالذهاب إلى هناك ليجدوها له. لكن تلميذاً من تلاميذه وجد بعض بقايا: فقد ذهب الشاب الهولندي المسمى "يوجن دوبواس" إلى الهند الغربية وحفر مُخرجاً بقايا ما يسمى إنسان جاوة، بقايا أول إنسان قديم توجد آنذاك. هذه البقايا حملت مسمى هيجل: بيثيكانثروبوس، لكنها صُنّفت ثانية: **هومو إريكتوس**.

تعدد الأصول والتمييز العنصري: إنّ تعددية الأصول التي قدّمها **صمويل مورتون ولويس اكاسيز** (من السخرية والعجب أنها كانت لعالمين أمريكيين مُتدينين يؤمن كلاهما بالخلق والخليقة!) عدّت الاعراق البشرية خلقت منفصلة مستقلة عن بعضها!، وهذه النظرية رفضها شارلس دارون، الذي ناقش لمصلحة أحادية أصل الأعراق البشرية ونظرية الأصل الإفريقي العصريّ للإنسان الحديث. لكن هيجل تقدم بمبدأ لتعددية الأصل التطورية المبنية على أفكار اللغوي أوغست شليشر، حيث إنّ عدة مجموعات لغوية مختلفة قد نبعت منفصلة من كائن قبل الإنسان لا يتكلم سمّاه «**أورمينشن**»، التي تطورت كلٌّ منها من أسلاف قرود. هذه اللغات المنفصلة أكملت انتقالها من الحيوانات إلى الإنسان، وتحت تأثير كل فرع رئيسي من هذه اللغات، تطور الإنسان – بشكل من أشكال نظرية لامارك لتوريث الصفات المكتسبة – كأنواع منفصلة، وهذه الأنواع يمكن تقسيمها إلى أعراق مختلفة. ومن هذا استنتج هيجل ضمنياً أنّ اللغات ذات القوى الكامنة هي التي شكلت الأنواع البشرية ذات القوى الكامنة، تترأسها: **مجموعات الأعراق السامية والهند – أوروبية، مع البربر، واليهود، والإغريق – الرومان، والأنواع الجرمانية في المقدمة**. ويمكن رؤية نظرة هيجل كسابقة لنظرية تعددية المناطق، التي بقيت حتى ١٩٠٠ في نزاع مع تطورات نظرية دارون للأصل الإفريقي العصريّ للإنسان الحديث. ومن ثم لم تستحسن نظرة تعددية المناطق، ثم قيل إنّ نظرة دارون قد أيّدتها حديثاً فك الرموز الجينية البشرية.

لم يتردد هيجل بتطبيق نظريته في تعددية الأنواع وإسقاطها على تنوع المجاميع البشرية في أغلب الطرق قوةً، حتى صار قائد المعتذرين للعنصرية العلمية (أو تمييز الأعراق العلمي).

نظرية الاختصار ورسوم هيجل للأطوار الجنينية: عندما كان هيجل تلميذاً في ١٨٥٠ أبدى اهتماماً كبيراً بعلم الأجنة، فقد كان يحضر المحاضرات (التي لم تكن شائعة) مرتين ويخطط وسائل الإيضاح البصرية ضمن مسودة محفوظاته: فالمراجع آنذاك كانت تحوي وسائل إيضاح قليلة واستعملت ألواح تصميم بأحجام كبيرة لتظهر للطلاب وبين لهم الأشكال الدقيقة تحت المجهر العاكس، وتوضيح الأنسجة الشفافة ضد خلفية سوداء. لقد اتفق جميع منظري التطور الأوروبيين أنّ كل الفقريات تظهر متشابهة جداً في أدوارها الأولى. فيما اعتُقد آنذاك النموذج العام. لكن كان هناك جدال منذ ١٨٢٠ حول صحة **نظرية الاختصار** القائلة إنّ الأجنة البشرية تتطور عبر أطوار لأشكال جميع المجاميع الكبرى للحيوانات البالغة. استخدم هيجل علم المورفولوجي أي علم الشكل ليبني التاريخ التطوري للحياة، في غياب دليل المتحجرات، مستعملاً علم الأجنة كدليل على العلاقات بين الأسلاف. لذلك كشف عن نظريته المثيرة للجدل: **نظرية الاختصار "تطور مراحل الأجنة تختصر تطور الأنواع"** مُدّعياً أنّ التطور الحيوي لكل كائن، أي أونتوجيني، يحاذي ويختصر نمو تطور الأنواع كله، أي فايلوجيني. وقد رُفض مفهومُ هيجل لهذا الاختصار.

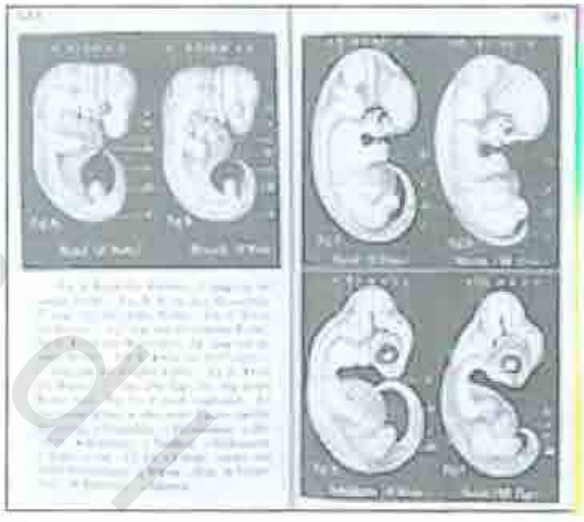

"وسائل إيضاح مثيرة، لكنها مُلفقة. لأجنة الكلاب والبشر، تبدو متشابهة وتقريباً متطابقة في ٤ أسابيع ثم في ٦ أسابيع. كما يبدو انفاً في جنين ٦ أسابيع للسلحفاة وجنين ٨ أيام للدجاجة. قدمها هيجل عام ١٨٦٨ كدليل مُقنع على التطور

تعدّ هذه الصور اليوم مزوّرة تماماً

كان هدف هيجل هو تقويم علم الأشكال (مورفولوجي) مع التطور كقاعدة مُنظمة للتركيب الكوني موحّداً العلم بالدين. وأعطى «محاضرات شعبية» ناجحة حول أفكار نظريته للطلاب ولسكان المدينة في جينا (المدينة الألمانية حيث جامعة جينا التي كان هيجل يعمل فيها) في أسلوب رائد ابتكره أستاذه "رودولف فيركاو". وتلبية لطلب الناشر بعمل يجتذب الشعب، استخدم هيجل مسودة محاضراته التخطيطية، حين كان تلميذاً، كأساس لكتابه المُسمى (فاتورليش سكوبفونكسشيخت) المطبوع في برلين عام ١٨٦٨، مُقدّماً بذلك **إنجيل التطور الشامل**. وقد ترجمَ كتابه بالإنجليزية باسم «تاريخ الخليقة» في ١٨٧٦؛ وظل يُطبع مراراً حتى عام ١٩٢٦.

صور هيجل الملفقة

وبيع الكتاب على نحو جيد جداً. ووثق هيجل كتابه مُقنعاً الآخرين من خصومه بصدق رسوماته ضبطاً وتأليفاً، وأكد علانيةً أنها تخطيطية

مثل أغلب الصور المستخدمة في التعليم. لكن بعض متخصصي علم التشريح المُعادين لأرائه التطوّرية أظهروا سراً شيئاً من القلق حيال صور معينة رُسمت بحرية وتصرّف. ثم إنّ هذه الصور ابدت ما كانوا يعرفونه أصلاً عن هذه التشابهات بين الأجنة.

بيعت ١٥٠٠ نسخة من الطبعة الثانية للكتاب عام ١٨٧٠ وجذبت انتباهاً أكبر، وتتابعت بسرعة الطبعات اللاحقة والمنقحة وبطباعة ألواح أكبر حجماً مع شهرة صارت جزءاً من «ثقافة التقدم» التفاؤلية الوطنية المعادية لرجال الدين في عصر الإمبراطورية الألمانية الجديدة لـ "أوتو فون بسمارك".

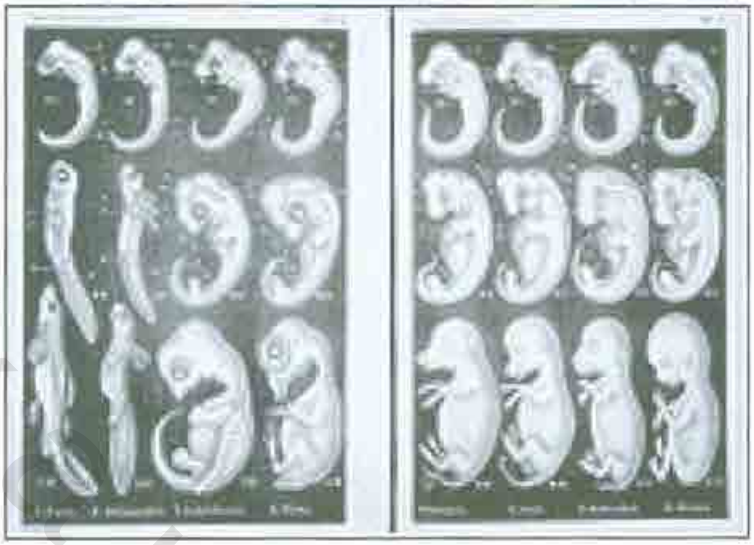

وسيلة الإيضاح من كتاب "نشوء وتطور أصل الإنسان" عام ١٨٧٤ تظهر المراحل «المبكرة» و«المتقدمة» و«المتأخرة» لأجنة السمك، وسمندر (السالامندر)، والسلحفاة وفرخ الدجاجة، والخنزير، والبقرة، والأرنب والإنسان

ثم صار التشابه بين المراحل المبكرة لأجنة الفقريات بديهية شائعة، وأثنى على وسائل الإيضاح ليجن متخصصون أمثال مايكل فوستر من جامعة كامبردج. وفي تقديمه لكتاب "انحدار نسب الإنسان وانتقاء الجنس" عام ١٨٧١، أثنى "داروِن" على هيجل بالتخصيص، وكتب: (لو ظهر كتابه «تاريخ الخليقة» قبل مقالي، فربما لم أكمله قط). ثم ظهرت الطبعة الخامسة لكتاب هيجل عام ١٨٧٤، مع صورة مثيرة للجدل على وجه الكتاب تظهر رؤوس القردة والإنسان مُعوضاً منها رأس هيجل نفسه.

النزاع: في نهاية ١٨٧٤، صدر كتاب هيجل (أنثروبوجيني اي أصل الإنسان) في علم الأجنة المبسّط، الذي حول الموضوع إلى ساحة قتال من أجل "الداروِنية" متوحداً مع شعار بسمارك (كالتشر-كامف أي نضال الحضارات) ضد الكنيسة الكاثوليكية. بالرغم من أنّ هيجل اعتنى جداً بوسائل إيضاحه، وغيّر ناشره إلى الناشر "ليم إنجلمان"، رئيس علم الحيوان من لايبزج، ثم إنه حصل على إذن منهم لاستعمال وسائل إيضاح من المراجع الأخرى، إضافةً إلى تحضير رسوماته الخاصة التي تشمل وسيلة إيضاح مثيرة على صفحتين متقابلتين تظهرُ المراحل الجنينية «المبكرة» و«المتقدمة» و«المتأخرة» لـ ٨ فقريات مختلفة (انظر الصورة تحت). ويُقال إن هيجل اتهمَ بالتزوير والاحتيال من قبل ٥ أساتذة (بروفيسورات) وأُدين في محكمة الجامعة في جينا. وقد أثبتت الدراسات الحديثة (ريشاردسون ٩٨٨، ريشاردسون وكيوك ٢٠٠٢) أنّ بعض الاتهامات الموجهة إلى رسوم هيجل الجنينية كانت صائبة شرعياً، لكن الانتقادات الأخرى لم يكن لها أساس. وكان هناك نسخ معدّلة كثيرة للرسوم الجنينية، لكن هيجل رفض جميع ادّعاءات التزوير. ولقد قيل أخيراً إنه «كان هناك دليل تلاعب يدوي» من طرفي النزاع كليهما (أي بين هيجل وخصومه).

ادّعى بعض العلماء المؤمنين بالخلق والخليقة أنّ داروِن اعتمد على رسومات هيجل كدليل على التطور ليعضد جداله ضدّ المضادين للتطور. هذا الادّعاء يهمل حقيقة أن داروِن نشر كتابه عن أصل الأنواع في ١٨٥٩، وانحدار

نصب الإنسان المنشور عام ١٨٧١ واللذين سبقا نشر هيجل وسيلة إيضاحه ذات الصفحتين لأجنة الفقريات الثمانية عام ١٨٧٤ فما بعد ذلك.

كان لكتاب دارون عن أصل الأنواع عام ١٨٥٩ تأثيرٌ شعبي هائل، لكنه كان كتاباً تقنياً أكثر منه كتاب علم شعبيّ: كان مُطولاً، وصعباً، وبوسائل إيضاح قليلة. لكن كتاباً واحداً من كتب هيجل قدّم خدمةً لشرح قصة "الداروينية" للعالم. كان هذا الكتاب الأكثر مبيعاً، ومُزيّن بوسائل إيضاح مثيرة، بعنوانه باللغة الألمانية: (ناتورليش سكوبفونكسشيخت) أي «تاريخ الخليقة» عام ١٨٦٨.

وهكذا، فإنّ داروتية الطبقات الاجتماعية (المسماة زوراً بالعنصرية العلمية) كانت ثمرة يانعة من نتاج نظريات دارون وهيجل في التطور. ومن المثير للسخرية أنّ تاريخ كلمة «آريان»، التي ترتبط بمواصفات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء لنموذج الجسد المثالي لألمانيا النازية (حيث يعدّون عرق "نورديك" جزءاً من العرق المتفوق)، إنّما يرتبط أصلاً بمواصفات شعب مختلف المظهر تماماً، وتاريخها يبدأ مع القدماء الهنود والإيرانيين، ومع شعوب الهند الأوروبية التي قطنت أجزاء مما يُسمّى اليوم إيران، وأفغانستان، والهند: وهذا المعنى الأصلي لم يعد مُستعملاً منذ زمن بعيد. كان التميّز الذاتي القبلي يتمثل بتركيب الكلمة «آريا» مشتقة من السنسكريتية «آريا» بمعنى النبيل فهو «آرياني»، التي تشير إلى الطبقة العليا في المجتمع الهندي القديم. وهذه الكلمات صارت معروفة للباحثين الأوروبيين في القرن الثامن عشر.

أريانوس هو التحوير اللاتينيّ المشير إلى إيران: "آريان" استعملت في اللغة الإنجليزية منذ زمن بعيد. وتاريخها ككلمة مُستعارة بدأ في نهايات ١٧٠٠، عندما استعيرت هذه الكلمة من السنسكريتية "آريا" المشيرة إلى المتكلم بلغات شمال الهند أو لغات إيران. ومن ثم صارت الكلمة "آريان" تشير إلى مجموعة اللغات المشتقة من تلك اللغة القديمة، ثم توسع المعنى ليشمل متكلمي جميع هذه اللغات ولما يُعتقد اليوم (برغم تعذر الدفاع عنه) أنّ حتى اشتقاق الكلمة الإيرلندية: «آير» جاء من أصل «آريان» عام ١٨٣٧ حيث أشاع أدولف بيكتيت فكرة أنّ اسم «آريان» يمكن إسقاطه كذلك على أسرة اللغات الهند-الأوروبية كلها. هذا الانحراف في المعنى أدّى أخيراً في ثلاثينيات ١٨٣٠ إلى إحساس خاصّ آنذاك، عندما جاء الباحث الألمانيّ فريدريك شليكل المختصّ بالهند-الأوروبية القديمة، بنظريته التي تربط الكلمات الهند-إيرانية مع الكلمة الألمانية "إير" أي هونر (أي ذو المقام الفاضل)، ومع الأسماء الألمانية القديمة التي تحوي المقطع أريو-، مثل المحارب السويسريّ آريو فيستوس الذي كتب عنه - يوليوس قيصر. لقد نظرّ فريدريك شليكل أنّ الكلمة بالرغم من خصوصيتها الهند - إيرانية، فإنّ الكلمة "آريا" - هي حقيقةً الاسم الذي أطلقه الهند - الأوروبيون على أنفسهم، ليعني فيما يعنيه «الشعب ذو المقام الفاضل» (هذه النظرية لا تزال موضع جدال). ثم صار «الآري» مُترادفاً مع «الهند - أوروبي»، وبهذا المعنى دخلت البحث الواعي آنذاك. بعد ذلك بقليل، اقترح أن الوطن الأصلي للهند - أوروبيين هو شمال أوروبا.

بعد هذا الجدال اللغوي، وفي ١٨٥٠ افترض آرثر دي جوبينيو أنّ «الآريّ» يُقابل الثقافة الهند-أوروبية لما قبل التاريخ. واعتقد جوبينيو أن هناك ٣ أعراق أصلية - الأبيض، والأصفر، والأسود - وكلّ ما عداها تمثل تمازج الأعراق (الأجناس) التي عدّها جوبينيو سبب الفوضى في التاريخ!!! وبحسب جوبينيو، فإنّ الآريين الأوروبيين الشماليين هم الذين يمثلون «العرق أو الجنس المتفوق»، لأنهم ظلوا محافظين على «الصفاء العرقيّ». وأمّا الأوروبيون الجنوبيون (ويشمل الأسبان والفرنسيون الجنوبيون)، والأوروبيون الشرقيون، والأفارقة الشماليون، وسكان الشرق الأوسط، والإيرانيون، وسكان آسيا الوسطى، والهنود، فكلهم يعدّهم جوبينيو: خلطاء العروق، ومنحطين عبر تمازج الأجناس، لذلك فهم ليسوا بالنماذج المثالية.

صارت ألمانيا النازية تحت أدولف هتلر سيئة السمعة في استخدامها برامج الـ يوجينيكس للحفاظ على «صفاء» العرق الألماني.

فقد ألفّ تيموثي رايباك كتابه «مكتبة هتلر الشخصية – الكتب التي كوّنت مسار حياته» نشره بودلي هيد، لندن، ٢٠٠٩»، وكتب في صفحة ١٠٩ وصفحة ١١٠ على التوالي ما يأتي:

(في الجزء الأول من دراسة كبيرة في جزأين: "دراسات في الوراثة البشرية والتنظيف العرقي"، كتب مؤلفه جوليوس فـ. ليهمان: «إلى السيد أدولف هتلر، هذه لبنة بناء مهمة لتعميق فهمه. مخلصك الحميم ج. فـ. ليهمان».

وأهدى أوتو كانتكيليت ملزمته اليدوية حول العقم عام ١٩٢٩ وهي بعنوان: "إنهاء قابلية الانجياب لأجل التنظيف العرقيّ وللأسباب الاجتماعية"... ونقش عليه: «إلى هتلر مع الصداقة الشديدة»).

(إضافةً إلى كتاب جرانت: "عبور العرق العظيم"، كان اهم كتاب اخر هو كتاب المؤلف هانس جونثر المسمى جونثر العنصري لوهو كتابه: "دراسة النماذج البشرية العرقية للشعب الألماني"، في ٦ مجلدات، وهو خلاصة للهوية الأرية، وجعل هتلر هذين الكتابين ضمن الكتب الموصى بقراءتها لأعضاء الحزب النازي).

وقام النازيون بتجارب مستفيضة على أرواح البشر الأحياء لفحص نظرياتهم الجينية. وقام النظام النازي بإجراء عمليات العقم بالقوة على كلّ من عدّه غير صالح للبقاء جسدياً أو عقلياً، بما يصل إلى قرابة ٤٠٠٠٠٠ شخصاً بين ١٩٣٤ و١٩٣٧ فقط.

وهكذا قام الألمان بسابقة حذت حذوها وخطاها دولٌ أخرى. ففي السويد، ضمن «قانون العقم لعام ١٩٣٤» إجراء العقم الاختياري لبعض مرضى الأمراض العقلية. من ١٩٣٤ حتى ١٩٧٥ قامت السويد بإجراء عمليات العقم على أكثر من ٦٢٠٠٠، وعقمت السويد من البشر أكثر من أي دولة أوروبية أخرى ما عدا ألمانيا النازية. برنامج يوجينيكس السويدي الواسع النطاق استهدف الشاذين ومرضى الأمراض العقلية، إضافة إلى الأسباب الاقتصادية المترتبة على نظرية مالثوس. هناك مقاطعتان في كندا أجرت عمليات عقم قسريّة استمرت حتى أوائل سبعينيات القرن العشرين. ومورس برنامج يوجينيكس الواسع النطاق في الولايات المتحدة، أستراليا، النرويج، فرنسا، فنلندا، الدانيمارك، إستونيا، ايسلاندا، سويسرا، الصين.

ولعب تمييز الأعراق العلمي دوراً في توطيد سياسة الفصل العنصري (أبارثايد: أي الفصل) في جنوب إفريقيا. ففي جنوب إفريقيا، قام العنصريون البيض امثال دودلي كد، الذي ألف كتاباً بعنوان «الكافر الحقيقي» (من العربية: كافر) عام ١٩٠٤ من أجل سبر أغوار العقلية الإفريقية. اعتقد هؤلاء أنّ الفروق الثقافية بين البيض والسود في جنوب إفريقيا قد تعزى إلى فروق فسلجية (وظائفية) في الدماغ. وبدلاً من الاقتراح أنّ الأفارقة هم «أطفال كبار»، كما صرّح بذلك المستكشفون البيض سالفاً، اعتقد "كد" أنّ الأفارقة «مختلو النضج ولهم روح الانتقام». ووصف الأفارقة مرةً أنهم «**ضعاف عقول وميئوس منهم**» بالرغم من وصفهم تارة أخرى أنهم «دُهاة جداً»!!!

كانت لجنة كارنيجي قلقة من أجل مشكلة البيض الفقراء في إفريقيا الجنوبية، ومن ثم لعبت هذه اللجنة دوراً أساسياً في توطيد سياسة الفصل العنصري (أبارثايد) في جنوب إفريقيا.

جريجور ميندل (١٨٢٢–١٨٨٤) هو «**أبو علم الجينات الحديث**»، وُلد لأسرة ألمانية في الإمبراطورية النمساوية (جمهورية الشيك اليوم). في ١٨٥١ أرسلَ إلى جامعة فيينا، ورجع إلى دير رهبانيته كمُدرّس أساساً في علم الفيزياء. ما بين ١٨٥٦–١٨٦٣ قام ميندل بتزريع واختبار قرابة ٢٩٠٠٠ نبتة من نبات البزاليا (المسماة علمياً بيزوم ساتيفيم).

أوضحت هذه الدراسة أنّ واحداً من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل المتنحية الصافية، وأنّ اثنين من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل الهجينية، وأنّ واحداً من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل الغالبة الصافية. وانتهت تجاربه قانونين عامّين: "قانون الفصل" و"قانون التصنيف المستقل"، التي صارت تعرفُ أخيراً بـ "قوانين ميندل للوراثة". وقد قرأ ميندل مقالته: تجارب في تهجين النبات، في اجتماعين لجمعية التاريخ الطبيعي في برون (مورافيا) في ١٨٦٥. وعندما نشرت مقالة ميندل عام ١٨٦٦ في محاضر جلسات جمعية التاريخ الطبيعي في برون، كان لها أثرٌ ضئيل (ذُكرت ٣ مرات فقط في الـ ٣٥ سنة اللاحقة).

ومن السخرية أنّ دارون وضع نظريته من دون أن يعرف شيئاً عن قوانين **ميندل في الوراثة**. كذلك، فإن نتائج ميندل قد جُهلت مدة طويلة بعد وفاة الاثنين ميندل ودارون. وفي ذلك الحين، اعتقد أغلب علماء الحياة فكرة "**الوراثة التمازجية**" (التي سماها دارون: أنجينيسس أو أن – جينيسس، من أن: كلي، جينيسس: توليد أي التوليد الكلي): وتعني أنّ الذرية تملك متوسط صفات الوالدين. واقترح دارون بحسب أنجينيسس أنّ خلايا الجسم تنزع جيولات (جمع جميول: أي المورّثات بحسب اعتقاد دارون الخاطئ)، تتجمع في الأعضاء التناسلية قبيل عملية الإخصاب. وظنّ أنّ مواصفات الأبوين تتمازج مثل تمازج الأصباغ في أثناء مرورها للذرية. لكن إذا كان هذا صحيحاً، فكيف يمكن لطفرة محظوظة واحدة (جاءت عن طريق المصادفة!) أن تنتقل عبر نوع الحيوان؟ حتماً ستتمازج وتتلاشى، بالضبط مثل قطرة صبغ أبيض في غالون صبغ أسود! لم ينجح دارون وتقوّضت نظريته في "الانتقاء الطبيعي". لم تستطع الوراثة التمازجية تفسير التغيّرات المحدثة للأنواع وحفظها بين الأجيال اللاحقة، وبقيت واحدةً مما يُسمى **الحلقات المفقودة والعديدة لنظرية دارون**. وبالفعل، فإنّ المدة ما بين ١٨٨٠ حتى ١٩٣٠ كانت تمثل «**حسوف واضمحلال الدارونية**»، لأنّ آليّات التطور قد تقوّضت تماماً.

ولكن مفاهيم ميندل للجينات قد أُعيد اكتشافها في مطلع القرن العشرين، من قبل هيوجو دي فريس (ومن قبل كارل كورينس): لقد كان هيوجو دي فريس (وهو نفسه دارونيّ الهوى) هو الذي أدخل مصطلح الطفرة (كما نعرفه)، وتطوير "نظرية الطفرة للتطور" لإيجاد نظرية أكثر نجاحاً لقطع استمرارية التوارث بين الأجيال بدلاً من استخدام الوراثة التمازجية للانتقاء الطبيعي. إن الدارونية الحديثة المعاصرة تفصل بين آراء دارون في الانتقاء الطبيعي عن أطروحته في أنجينيسس؛ ولكن «التركيب الجديد» الذي يوحّد علم الوراثة لميندل مع نظرية دارون في الانتقاء الطبيعي قد تمّ اختراعه وتصنيعه (أو بالأحرى تلفيقه وتبركته كما يُقال) في أثناء أكثر من عقد (من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٧) من قبل جوليان هكسلي (أكثر أتباع الدارونية تعصباً) الذي ألف كتابه المسمى: «التطوّر: التركيب الجديد» (عام ١٩٤٢). لذا فإنّ الطفرة الواحدة المحظوظة قد استعيض عنها بطفرات عديدة، كلها عن طرق المصادفة وعبر ملايين السنين!!!

واليوم، يظن كثيرون أنّ وجود بقايا متحجرات للعديد من الأنواع المنقرضة تدلّ ضمنياً وبالضرورة على التطور، لكن أكثر الناس يجهلون أنّ أكثر المعارضين وأكثرهم مقاومةً لدارون لم يكونوا رجال دين، بل خبراء المتحجرات. يبدو أنّ اكتشاف أي قطع عظمية متحجرة سرعان ما ترتب (ولو على نحو غير كامل) ثم يُركب شكلها مع خيال متحيّز لادعاء اكتشاف «حلقة مفقودة»!!!

في الواقع، فإنّ الدارونية الحديثة قد أدّت إلى تساؤلات أكثر من إجابات تستطيع تقديمها. ولكي النظريات تصبح حقائق علمية، فيجب أن يكون بالإمكان أن تستعاد نتائجها وتتكرر؛ ولكن حتى الآن، لم يستطع أحدٌ إعادة أو استعادة أي من النتائج، أو حتى أن يشهد عملية التطور وهي تعمل، مُحوّلةً النوع إلى نوع آخر

ثم لماذا يكون الإنسان على قمة سُلم التطوّر، إذا كانت الآلية هي الطفرات المتعددة؟ ما الذي يجعل هذه الطفرات المتعددة تتوقف عند نوع الإنسان؟

وكيف تستطيع المصادفة التحكمّ بالطفرات مؤديةً إلى أنواع جديدة؟

نشر واين جاكسون (٢٠٠٢/١٢/٢٣) على الشبكة البينية (الإنترنت) مقالة بعنوان: «شذوذ تطوّريّ أم نباح على شجرة مغلوطة» مقرراً الحالات الشاذة في التفسير التطوريّ للكائنات الحية، مما يلقي ظلال الشكّ الخطر على نظرية داروِن في أصل الأنواع البيولوجية، لتصادمها بنماذجَ عديدة من معطيات الحقائق.

بحسب نظرية التطور لداروِن:

- يتوقع المرء أنّ بقايا الكائنات الحية أسفل السلم في سجل المتحجّرات المحفوظة ستكون نادرة جداً، لكن على العكس، فإنّ طبقة المتحجّرات الأولى كانت تظهر «انفجاراً مُفعماً بالحياة» وبغزارة أدهشت أنصار داروِن. فصوّروها على أنها واحدة من الأسرار "الكبرى" في تاريخ الحياة.

[G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 18].

- يجب أن نتميّز أشكال الحياة الأولى بتعقيد أقلّ كثيراً من تلك التي افترض أنها تطوّرت منها لاحقاً. لكن لم يكن ذلك ما وجدناه. إنّ ما يُسمّى بأشكال الحياة «البسيطة» كانت «معقدة جداً وعلى نحو لا يصدق».

[G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 15].

إنّ حركة الارتقاء المزعومة في سلسلة التطور قدّمت مشكلات عديدة. فمثلاً، السرخسيّات لها ٥٠ كروموسوماً (صبغيّاً) في نواة كل من خلاياها؛ وجراد البحر (القراديس) له ٢٠٠ كروموسوماً؛ في حين ان الإنسان له ٤٦ كروموسوماً فقط!!!

وهذا انحراف عن نظرية داروِن في التطور.

حتى عندما افترضوا أنّ الفيلة قد تطوّرت في ملايين السنين بعد انقراض الديناصورات. جاءت ثار متحجرت الفيل والديناصور وقد اكتشفت في الطبقة الصخرية نفسها.

[Merrill, A. Hyatt. (1954), Strange Prehistoric Animals and Their History (Boston: L.C. Page & Co.) page 162]

- زعم أنصار التطور أنّ الكائنات البحرية الضئيلة "ثلاثية الفصوص" (مفصليات منقرضة) قد انقرضت من الأرض بـ ٥٠٠ مليون سنة قبل ظهور الإنسان. ومع ذلك فقد وُجدَت "ثلاثية الفصوص" مُنطمرةً في بصمة حذاء الصنع لإنسان قرب منابع الطباء (أنتيلوب سبرنغ) في يوتا في أمريكا.

[Lammerts, Walter A., Ed. (1976), Why Not Creation? (Grand Rapids: Baker) pages 188–189]

- لقد وُجدت جذوعُ أشجارٍ متحجّرة منتصبة نحو ٢٠–٣٠ قدماً في العلو (قرابة ٢–٣ طوابق) في سجل الصخور:

[Lammerts, Walter A., Ed. (1976), Why Not Creation? (Grand Rapids: Baker) page, 153].

وبعضها ناتئ خارج من بين طبقات الصخور العديدة على افتراض أنها تكوّنت عبر ملايين السنين. ولكن يتضح بجلاء أن هذه الطبقات قد تراكمت على بعضها بعضاً على عجل وبسرعة–قبل أن يكون للأشجار الوقت الكافي لكي تنهار وتتحلل. إنّ هذا لا يتوافق مع نظرية التطور.

نشرت مجلة الطبيعة (Nature) مقالاً علمياً بعنوان: "رجل العصر الجليديّ يقتني كلباً":

[Fewell, Kendall (2002), «Stone Age man kept a dog,» Nature, 22/11/2002)].

يقرر فيها المؤلف: (**الشمبانزي هو القريب الأقرب نسباً إلينا... لكن فصيلة الشمبانزي تتعاون وتتواصل مع البشر بطريقة رديئة**). من جهة أخرى وبحسب "برايان هير" عالم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) من جامعة هارفارد: "إنّ الكلاب، التي يفترض أننا لا ننتسب إليها إلا من بعيد، قد تقاربت معنا على ما يبدو عبر بعض من عملية تكييفنا". ببساطة إنّ ظاهرة كهذه، لا يمكن أن تتوافق مع نظرية التطور العامة.

أسرة هومينيد (بحسب مزاعم أنصار التطور):

(من اللاتينية هومو أي الإنسان وأشباهه، وفي العربية حمام أو هُمام أي رجل أو سيد شجاع) وتشمل هذه الأسرة: الإنسان وأسلافه المنقرضين والمتصلين به ممن يسير على قدمين. بقايا أنواع الإنسان المتحجرة القديمة تسمّى بالباليوليثيك (من اللاتينية باليو أي قديم، والعربية بالي، ليثيك أي حجري)، وهي:

1. **أوسترالوبيثكوس**، (من اللاتينية أوسترالس أي جنوبي، واليونانية بيثيكوس أي قرد).
2. **هومو هابيليس** (الإنسان القابل أي ذو القابلية، من اللاتينية هابل وفي العربية قابل)، ويستطيع المشي واقفاً على قدميه.
3. **هومو إيريكتوس** (الإنسان المنتصب) (يسمّى سابقاً بيثيكانثروبوس إيريكتوس: بيثيكانثروبوس من اليونانية بيثيكوس أي قرد، أنثروبوس أي إنسان) والإنسان المنتصب يتمثل بإنسان جاوة (انظر أدناه هيجل) وإنسان بكين.
4. **هومو سابينس** (الإنسان العاقل: من اللاتينية سابر والعربية سبر غوره) ويشمل هومو سابينس نياندرثالس، الذي وجدت بقاياه عام ١٨٥٧ أول مرة في كهف بقرية نياندرثال غرب ألمانيا.

يُسمي أنصار التطور سلفَ الإنسان الشبيه بالقرد أوسترالوبيثكوس، ويعني "قرد جنوب إفريقيا". وهذه الكائنات الحية ليست إلا أنواعاً من القرود القديمة المنقرضة. وقد أُجريت بحوث مستفيضة على نماذج عدّة من أوسترالوبيثكوس من قبل اثنين من علماء التشريح المعروفين عالمياً من إنجلترا ومن أمريكا، وهما اللورد سولي زوكرمان و البروفيسور شارلس أوكسنارد، اللذان أوضحا أن هذه القرود تنتمي إلى أنواع من القرود الاعتيادية التي صارت الآن منقرضة، ولا تنمّ على أي تشابهٍ للبشر.

ويصنف أنصار التطوّر المرحلة الثانية لتطور الإنسان بتسميته هومو، ويعني الإنسان. وبحسب زعمهم، فإنّ الكائنات الحية في مجموعة هومو المتسلسلة تُعدّ متطورة أكثر من أوسترالوبيثكوس. اخترع أنصار التطور مخططاً وهمياً للتطور بترتيب المتحجرات المختلفة لهذه المخلوقات ترتيباً عجيباً. هذا الترتيب لم يُثبت قط. أكد إرنست ماير (وهو واحد من أكثر أنصار التطور في القرن العشرين شهرة) في كتابه "إحدى المناظرات الطويلة" أن: (**الألغاز التاريخية مثل أصل الحياة أو أصل الإنسان العاقل خاصة، هي صعبة جداً، بل حتى إنّها تقاوم أي تفسير نهائي ومُرضٍ**).

ثم بتلخيص سلسلة الربط على هذا النحو: **أوسترالوبيثكوس > هومو هابيليس > هومو إيريكتوس > هومو سابينس** يستدلّ أنصار التطور أنّ كلّ نوع هو سلفُ النوع الذي يليه. لكن، نتائج البحوث الحديثة لعلماء الإنسان القديم أثبتت أنّ إنسان **أوسترالوبيثكوس، و هومو هابيليس، و هومو إيريكتوس** قد عاشوا في مناطق مختلفة من العالم وفي الوقت نفسه!!!

[Alan Walker, Science, Vol. 207, 7 March 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Anthropology, 1st ed., J. B. Lipincott Co., New York, 1970, p. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, Vol. 3, Cambridge University Press, Cambridge, 1971, p. 272].

إضافة إلى ذلك، فإنّ قسماً من البشر المصنف كـ **هومو ايريكتوس** قد عاش في زمن قريب جداً. إنّ كلاً من **هومو سابينس نياندرتالس وهومو سابينس سابينس** (الإنسان الحديث) قد تعاصرا وعاشا في المنطقة نفسها!!!

Jeffrey Kluger, «Not So Extinct After All: The Primitive Homo Erectus May Have Survived Long Enough To Coexist With Modern Humans», Time, 23 December 1996].

نشر هارون يحيى بحثاً رائعاً على الشبكة البينية (الإنترنت) بعنوان: كيف قلبت المتحجرات التطور رأساً على عقب: ملايين الأدلة التي تدحض الداروينية (ترجمة كارل ن. روزيني وطبع الكتاب تام موسمان) في آذار، ٢٠٠٦، وهذه بعض المقتطفات المفيدة:

(هذه الحالة تشير على ما يبدو إلى بطلان الدعوى أنهم أسلاف الآخرين. شرح "ستيفن غاي غولد" هذه الورطة لنظرية التطور بالرغم من كونه واحداً من قادة المدافعين عن التطور في القرن العشرين: (الذي صار عندنا سلماً لثلاث سلالات متعاصرة من أسرة هومينيد (أوسترالوبيثكوس افريكانوس، اوسترالوبيثكوس القويّ، هومو هابيليس)، لا ينشأ أحدٌ منهم عن الآخر!؟ كذلك. لا يُظهرُ أحدٌ من هؤلاء الثلاثة أي نزعة تطوري في أثناء مدة وجودهم على الأرض).

باختصار، فإنّ سيناريو التطور البشريّ، الذي «دُعم» بمساعدة رسوم مختلفة لبعض المخلوقات «نصفها قرد ونصفها إنسان» التي تظهر في وسائل الإعلام وكتب الدورات الدراسية، على سبيل الدعاية، هو في الحقيقة ليس بشيء سوى قصة خيالية دون أي أساس علميّ.

إنّ اللورد **سولي زوكرمان**، وهو واحد من أكثر العلماء شهرة واحتراماً في المملكة المتحدة، الذي قام ببحوث مستفيضة في هذا الحقل لسنوات ودرس متحجرات **أوسترالوبيثكوس** قرابة ١٥ سنة، قد استنتج في النهاية، برغم كونه من أنصار التطور شخصياً، أنه **لا يوجد، في الحقيقة، أي شجرة أسرة كهذه متفرّعة من مخلوقات شبيهة القرود إلى الإنسان.**

استطاع تحديد التاريخ الراديومتري والكاربوني أن يكشف أعمار المتحجرات لأكثر من ٣.٥ مليار سنة من العمر، وأشار إلى أنّ أنواع الحيوانات قد ظهرت فجأةً، وهي الظاهرة التي عدّها داروين نفسه صعبة القبول. فالحيوانات على ما يبدو بقيت تقريباً غير متغيرة عبر كلّ هذه السنين الطويلة. بالرغم من تجميع عدد هائل من المتحجرات، فكلها تقريباً هي متحجرات حيوانات موجودة اليوم في حاضرنا، وقد أوجدت مشكلات لنظرية التطور. فالحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً، فإنها اعتيادياً تتفسّخ قبل أن تتحجر. لكن الكوارث الفجائية تستطيع دفن الحيوانات وطمرها عميقاً في الأرض. بعض الصخور والكائنات التي تحولت لتظهر المتحجرات لسنين وعقود قد ترسبت فعلاً في أثناء مدة قصيرة من الزمن.

إنّ الصحف اليومية غالباً ما تلفت انتباهنا بعناوين كهذه:

«**اكتشاف عنكبوت متحجّر منذ ٢٠ مليون سنة**»، أو «**اكتشاف وزغ متحجّر عمره ٣٥ مليون سنة**». وكلّ من هذين التقريرين هو في الحقيقة دليل دحض آخر على عدم حدوث أي عملية تطورية.

التمساح هو إحدى الزواحف التي عاشت منذ ٢٠٠ مليون كما اثبته سجل المتحجرات. ومع ذلك فإنه لا يـ ال حيّاً مفعماً بالحيوية اليوم.

عاشت أشجار جنكو منذ ١٢٥ مليون سنة، ولا تزال هناك نماذج حية منها موجودة في الصين حتى وقتنا هذا. عاشت رخويات نيوبولينا ٥٠٠ مليون سنة، وعاش وزغ تواتارا قبل ٢٠٠ مليون سنة، وجراثيم البكتريا العنكبوتية

منذ ٣٥ مليار سنة. وما زالت هذه الكائنات كلها اليوم حية مفعمة بالحيوية، وبكل منظوماتها المعقدة بتركيباتها الكاملة. إنّ حيوان توتيليس (أحد الرخويات البحرية) قد عاش في البحار منذ ٣٠٠ مليون سنة، وكل هذه المخلوقات عاشت، وتغذت، وتناسلت بالضبط بشكلها نفسه اليوم في بحارنا الحالية.

إنّ السمك الرئوي الأسترالي والإفريقي هو نموذج آخر للمتحجرات الحية التي ظلت حية منذ ٤٠٠ مليون سنة وما زالت مزدهرة في نموها في عصرنا الحاضر. لقد دُهش داروين لبقاء هذه الأسماك ليومنا الحاضر، ولذلك أشار إليها في كتابه **أصل الأنواع** على أنها "**أشكال شاذة**" التي "**يمكن تقريباً تسميتها بالمتحجرات الحية**". لكن هذه ليست نهاية قائمة المخلوقات التي ما زالت اليوم باقية دون تغيير بالضبط بأشكالها نفسه التي ظهرت بها منذ ملايين السنين. فأسماك ستيرجن (سمك ضخم يستخرج من بيوضه الكافيار)، وماكاريل (سمك بحري)، وبزّ الأنهار، وهيرنج (سمك الرنجه)، والسمك الإبريّ (سمك متطاول شبيه بأبي منقار)، ولوبستر (كركند أو استاكوزا)، وجراد البحر (قراديس)، وسمك القرش من العصر المسمى بـ الديفوني، هي كلها نماذج للمتحجرات الحية. أمثلة أخرى تشمل الأسماك الهلامية، والإسفنجيات، والضفادع، والنحل، والنمل، والفراش، والنمل الأبيض (الأرضة).

ذباب لتنين (مغزل داده) عمره ٢٣٠ مليون سنة، والنمل الجنود التي عمّرت ١٠٠ مليون سنة، والسمندر عمرها ١٥٠ مليون سنة، هي كلها ما زالت حية اليوم بل مفعمة بالحياة. والشيء نفسه ينطبق على العنكبوتيات مثل العنكبوت ومتعددة الأرجل مثل الدودة الكثيرة الأرجل.

وأخيراً، العنكبوت المتحجر داخل الكهرمان (العنبر الأصفر اللون)، الذي قدّر عمره بـ ٣٠ مليون سنة، كان من أهم اكتشافات المليون الثانية (بعد ٢٠٠٠). أعلنت جامعة مانشستر تصريحاً يبين أنّ هذا العنكبوت وطوله ٤سم × عرضه ٢سم، **متطابق تماماً** مع نماذج العنكبوت الحالية. وتحوي الأرض عدداً لا يحصى من النماذج المتحجرة الأخرى منذ ملايين السنين لكائنات لا تزال تعيش حية اليوم مثل هذا العنكبوت، ولمتحجرات كائنات تعدّ اليوم منقرضة.

اعترف عالم المتحجرات البريطاني المشهور ديريك فـ. آغر، بالرغم من كونه من أنصار التطور: (تظهر النقطة التي عند فحصها بالتفصيل لسجل المتحجرات، سواء كان ذلك على مستوى الرتب، أم مستوى الأنواع، فإننا نجد مراراً وتكراراً -**أن لا وجود لتطور تدريجي، وإنما انفجارٌ فجائيٌ لمجموعة على حساب أخرى**).

وهذا يعني أنه في سجل المتحجرات جميع أنواع الأحياء المختلفة قد ظهرت فجأةً وبطريقة مستقلة عن بعضها، كما هي كاملة التكوين (بكلّ تراكيبها المختلفة)، **دون اي اشكال وسيطة بينيّة بسبب التطور (الوهمي)**، وهذا يناقض فرضيات داروين. وهذا ايضاً دليل قوي جداً على أنّ جميع الأشياء الحية إنما هي مخلوقة. ثم إنّ التفسير الوحيد لهذا الظهور الفجائي، والكامل الشكل بكلّ التفاصيل، ودون أي سلف تطوريّ للأنواع الحيّة هو أنها قد خلقت.

من الواضح أن دليل سجل المتحجرات هو لمصلحة حقيقة الخلق؛ والمتحجرات في أسرة هوميند قد تمّ التلاعب بها (عبر تركيب العظام الكاذب، وإضافة الخيال في إنتاج صورها النهائية) من أجل التفسير المغلوط لنتائج خطط لها سابقاً لتدعيم التطور الداروني.

نقلت مجلة **نيوزويك** في (١٩٨٠/١١/٣) خبراً حول مؤتمر مهم جداً وتاريخي، يضمّ ١٦٠ من أكثر أنصار التصور تميّزاً في العالم، عقد في شيكاغو (أمريكا) في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٠. في هذا اللقاء، حصل الاعتراف الجماعي على أنّ الـ ١٢٠ سنة الماضية من استخلاص المتحجرات من الأرض، قد فشل في تزويد حجة واحدة أكيدة تدلّ على وجود متحجرات الكائنات البينية الوسيطة. بكلمة أخرى، تمّ التسليم أن الاعتقاد

الداروني السائد مدة طويلة من أنّ التطور قد حصل عبر تغيرات صغيرة لانهائية عبر حقب زمنية طويلة جداً هو أمرٌ – أقلّ ما يُقال فيه – أنه بعيد الاحتمال جداً!

وصرّحت نيوزويك: (الحلقة المفقودة بين الإنسان والقردة... هي وحدها الأكثر سحراً بين جميع سلاسل التطور لمخلوقات وهمية. وفي سجل المتحجرات، فإنّ الحلقات المفقودة هي القاعدة... فكلما بحث العلماء أكثر عن الأشكال الانتقالية ما بين الأنواع، كانوا مُحبطين أكثروأكثر... وتشير الأدلة من سجل المتحجرات اليوم وعلى نحو ساحق إلى تباعدها عن الداروينية الكلاسيكية التي درسها معظم الأمريكيين في المدارس الثانوية: أن الأنواع الجديدة تتطور من أنواع قديمة، عن طريق تراكم تدريجيّ لتغيّرات صغيرة، كلّ منها يساعد الكائن الحي على البقاء والتنافس في البيئة).

ولكن بدل التخلي والتبرؤ من التطور، قام أنصار التطور ببثّ الحيوية وبسرعة في نظرية سابقة (يطلق عليها اسم خيالي "**نظرية وحش الأمال**") تسمى "**التوازن المتقطع الفوري**". وهذه النظرية الآن هي التي تبناها أكثر علماء التطور عن الطريقة التي تطورت بها الحياة. ومن المريح لهم، فإنّ التوازن الفوري لا يتطلب سجل المتحجرات البينية للكائنات الانتقالية. وبالأساس فإنّ التوازن المتقطع هو فرع من نظرية التطور، التي تنصّ، وفي مناسبات عدة، على أنّ النوع الواحد ينتج، أو بالأحرى، يولد نوعاً مختلفاً عنه تماماً. ولكي يحصل هذا، فلا بد من تغيرات صغيرة لانهائية وعبر حقب زمنية هائلة، تحدث **فورياً وبالجملة**، لتسبدل العديد من الجينات لا جيناً مُعيناً و حداً (وحرفياً فإنّ هذا يعني أنّ آلاف الجينات يجب أن تتغير وتتبدل بتزامن كامل في النوع الواحد لكي يكوّن نوعاً آخراً مختلف عنه). لكن هذه أحداث غريبة إن لم تكن خارقة للعادة، وذات احتمالات مستحيلة بحساب الرياضيات أقلّ احتمالاً من النظرية الداروينية نفسها (تغيرات صغيرة عبر حقب زمنية هائلة!). وهكذا، فإنّ النظرية التطورية دون سجل متحجرات، قد أُديرت جانبياً وأُنقذت مرةً أخرى من الخطر المحدق برفضها تماماً!

من الجليّ الواضح جداً أنّ نظرية التطور قد طرحت بـ ٣ أشكال متعاقبة: نظرية داروين الأصلية للتطوّر التدريجيّ (من نوع إلى آخر، مروراً بأشكال انتقالية، عن طريق "الإنتقاء الطبيعي" تحت تأثير قوى "الطبيعة") قد خطط لها سابقاً وفرضت على الدوائر العلمية منذ البدايات الأولى. لكن عندما تمّ اكتشاف "قوانين مندل في الوراثة" تقوّضت مصداقية الداروينية الأصلية، فقام أنصار التطور باستبدالها بـ "الداروينية الحديثة" عبر "التركيب الجديد للتطور" عبر طفرات وراثية في أثناء فترات طويلة من الزمن. ولكن عندما أظهر سجل المتحجرات ظهور الكائنات الحية فجأة وبكمال تراكيبها، من دون أشكال انتقالية، فإنّ الداروينية الحديثة قد تقوّضت هي الأخرى، مما أجبر أنصار التطور لتغييرها مرة أخرى إلى نظرية "التوازن المتقطع الفوري" لتفسير ظهور أنواع جديدة بطريقة فورية وجملةً (عبر طفرات تدريجية لكنها طفرات لعديد هائل من الجينات متزامنة مع بعضها، وعبر حقب زمنية هائلة)، دون الحاجة إلى الأشكال الانتقالية البينية. وكلّ هذه التفسيرات العرجاء وضعت وقدّمت من أجل تجنب الحقيقة الأكثر منطقاً، بل والحقيقة المبرهن عليها علمياً: حقيقة خلق جميع الكائنات الحية من قبل الخالق.

وأما فيما يخص الطفرات الجينية (سواءً كانت هذه الطفرات في جين واحد أم في عدة جينات)، فهي حقل الطب، يُعدّ أحد أهم أسباب ولادة الجنين الميت والتشوهات والأمراض الجينية، هو زيغ الصبغات أي الشذوذ الجسيم للكروموسومات، التي تتعذر الحياة بسببه. إنّ الشذوذات الخلقية، مثل فوكوميليا أي قمئيّة الأطراف (بتر الأطراف الخلقي) يكون بسبب تأثير بعض الأدوية في أثناء الحمل. بل إنّ طفرة واحدة في جين واحد بحذف جزء منه أو إضافة جزء آخر قد يتسبب في عيوب ولادية خطرة وفواجع جينية معوقة، مثل ترايسومي أي تثلث صبغيّ (مثل متلازمة داون نتيجة تثلث صبغيّ في كروموسوم رقم ٢١). إذن، فالطفرة تكون دوماً، أو تكاد تكون دوماً مُضرة وبلا هدف.

زيغ الصبغات أي الكروموسومات هي انحرافات في مكونات الصبغات الاعتيادية للخلية، وتمثل سبباً أساسياً للحالات الجينية في الإنسان، مثل متلازمة داون. الأعداد الشاذة للصبغات أو في طخم الصبغات، مثل اختلال الصيغة الصبغية، قد تكون مميتة أو تؤدي إلى اضطرابات جينية.

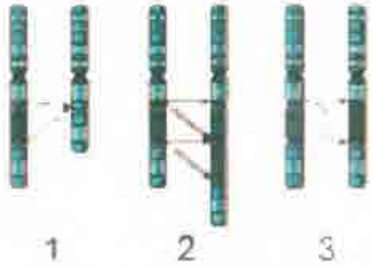

الطفرات الثلاث الكبيرة في الكروموسوم (أي الصبغي) الأحادي:
(١) خبن اي حذف.
(٢) ترفيل اي ازدواج.
(٣) انقلاب. مثلاً في "متلازمة داون". هناك ٣ نسخ للكروموسوم/الصبغي رقم ٢١

زيادة أو فقدان حامض (د ن أ) من الصبغات قد يؤدي إلى تنوع في الاضطرابات الجينية. وهذه بعض النماذج البشرية:

- **متلازمة المواء**، بسبب خبن أي حذف جزء في الذراع القصير للصبغة رقم ٥. يكون للطفل الوليد المصاب صياحٌ عالي النبرة مثل مواء القط. ويكون له طخم عيون متباعدة ورأس صغير مع فك صغير، ويكون متخلفاً عقلياً بدرجات تتفاوت بين التخلف المتوسط إلى الشديد، ويكون قصيراً جداً.
- **متلازمة وُلف–هيرشهورن**، بسبب خبن (حذف) جزئي في الذراع القصير للصبغة رقم ٤. وتتميز بتخلف النمو الشديد مع تخلف عقلي بالغ الأثر.
- **متلازمة داون**، بسبب نسخة زائدة في الصبغيّ أي الكروموسوم رقم ٢١ (ثلث صبغيّ ٢١). وتتميز بنقص في التوتر العضلي، وببنية قصيرة وممتلئة الجسم، وعدم تناسق الجمجمة، وعيون مائلة (كعيون المنغوليين)، وتخلف عقلي بسيط إلى متوسط الدرجة.
- **متلازمة إدوارد**، وهي ثلث صبغيّ والثاني الأكثر شيوعاً؛ تعدّ متلازمة داون هي الأكثر شيوعاً. وهي ثلث صبغيّ في الكروموسوم رقم ١٨. أعراضه تشمل تخلفاً عقليّاً مع العديد من أنواع الشذوذ الخلقيّ والمسبب لمشكلات صحية خطرة. يموت نحو ٩١٪ في دور الطفولة؛ لكن الذين يتجاوزون تاريخ ميلادهم الأول، يكونوا بصحة اعتيادية من بعد ذلك. ويتميزون باليد المنطبقة (منكمشة) التي تتميز بأصابع متراكبة على بعضها.
- **متلازمة كلاينفلتر** (XXY)، اعتيادياً، يكون الذكور المصابون بمتلازمة كلاينفلتر عقيمين، ويكونون ذوي أذرع وأرجل طويلة وقامة أطول من نظرائهم. يكون الأولاد المصابون غالباً خجولين وهادئين مع نسبة عالية من تأخر الكلام وخلل القراءة. عند البلوغ، ودون العلاج بال تستوستيرون، فإنّ بعضهم يصاب بـ "تثدّي الرجال".

إذن، كيف تتمكن طفرات عديدة بطريق المصادفة العمياء، ولو عبر ملايين السنين، من تطوير الأحياء من الأنواع البسيطة إلى المعقدة؟

ثم كم هو عمر الإنسان؟

وكم هو عمر الأرض أصلاً؟

لذلك فليس غريباً أن يقوم خبراء المرجعيّات العلمية من تأليف كتب مرجعية تتحدى وتدحض مفهوم دارون الفاسد والمفروض فرضاً، وتقويضه من أساسه. وهذه نماذج من الكتب المؤلفة (وهي غيض من فيض كثير):

١. مايكل دينتون: التطور: نظرية في أزمة (١٩٨٦):
٢. فيليب جونسون: دارون للمحاكمة (١٩٩١):
٣. مايكل بيهي: صندوق دارون الأسود–التحدي الكيميائي الحيوي للتطور (١٩٩٦):
٤. هارون يحيى: خداع التطور (١٩٩٩):
٥. مايكل جيفري سيموتس: مليارات الحلقات المفقودة (٢٠٠٧):
٦. يوجين وينشي: نهاية الداروينية (٢٠٠٩):
٧. بينجامين وايكر: خرافة دارون (٢٠٠٩):
٨. موريس بوكاي: ما هو أصل الإنسان؟ (١٩٩١)

موريس بوكاي (١٩٢٠–١٩٩٨)، وهو الطبيب الفرنسي، والعضو في جمعية علم الآثار المصرية في ١٩٧٣، عيّن بوكاي طبيباً خاصّاً للملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، ومرضاه الآخرون هم أفراد أسرة الرئيس السادات في مصر. في عام ١٩٧٦، بينما كان بوكاي في خدمة الملك، نشر كتابه: الإنجيل والقرآن والعلم: فحص الكتب المقدسة في ضوء المعرفة الحديثة (المترجم بالإنجليزية: أليستر أنيل) الذي أكد فيه أن القرآن لا يحوي أبداً أي تصريحات تخالف الحقائق العلمية الثابتة.

الكتاب الآخر لـ بوكاي هو: ما هو أصل الإنسان؟ (١٩٩١).

والكتاب الأخير لـ بوكاي هو: مومياء الفراعنة: الاختبارات الطبية الحديثة، قد نشرَ بالإنجليزية.

لقد تقدّم مالثوس بنفسه على جميع مُنظري داروينية الطبقات الاجتماعية في الإيحاء أن موسسة الإعانة الخيرية للفقراء قد تورّم المشكلات الاجتماعية وتفاقمها. وبذلك وُلد علم كاذب تحت مسمى داروينية الطبقات الاجتماعية وحتى قبل نظرية دارون، فإنّ المؤلفين: توت وجليدون في كتابيهما: «**الأعراق المحليّة لأهل الأرض**» (١٨٥٧) قد استعملا صوراً مُضللة يقترحان فيها أن **السود قد خلقوا ليكونوا الصلة بين الإغريق وقردة الشمبانزي**

قام لودفيك فون مايزيز بتعريف داروينية الطبقات الاجتماعية في كتابه «السلوك البشري» أنها: «**إحراز أفراد أو مجموعات أمن البشر الأفضلية على الآخرين نتيجةً لتفوقهم الجينيّ أو البيولوجي (الحياتي)**». إنّ داروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العرقي العلمي! وما هو حقيقةً إلا علم كاذب) تحمل اسم شارلس دارون، لكنها مرتبطة أيضاً بآخرين، أبرزهم هوبرت سبنسر، وتوماس مالثوس، وفرانسيس جالتون مؤسس يوجينيكس (علم تحسين النسل). ومن الولايات المتحدة، فإنّ كتاباً ومفكرين مثل: إدوارد يومانس، ووليم جراهام سومنر، وجون فيسك، وجون بيرجس، وآخرين، كلهم طوّروا نظرياتهم في «**تطور الطبقات الاجتماعي**» نتيجة تعرّضهم لأعمال دارون وسبنسر. وتأثر ه. ج. ويلز جداً بأفكار دارون. وكذلك كتب الروائي "جاك لندن" قصص البقاء، التي مثّلت رؤياه في داروينية الطبقات الاجتماعية.

كان أول مدير–عام لليونيسكو هو جوليان هكسلي أحد منظري التطور وعلماء الإنسانيات، الذي كتب عن العالم المُزدحم في كتابه «إنسانيات التطور» (عام ١٩٦٤)، داعياً إلى سياسة سكان العالم. انتقد هكسلي بصراحة مواقف كلٍّ من الشيوعيين والرومان الكاثوليك من تحديد النسل، وتنظيم السكان، والانفجار السكاني

وهكذا فإنّ نظرية مالثوس وداروينية الطبقات الاجتماعية قد أثرت في كلٍّ من النازية والماركسية، الأيديولوجيتين (الأيديولوجية هي نظام من مفاهيم الحياة والثقافة البشرية) اللتين قامت بأكبر إبادة جماعية في القرن العشرين. في الواقع، فإنّ كتابات كارل ماركس (رأس المال، عام ١٨٦٧) وفريدريك إنجلز (اختصارات في

عد الاقتصاد السياسي، عام ١٨٤٤) كلاهما تدور حول نظرية مالثوس بالرغم من معارضتهما الظاهرية لها، إلا أنهما حوّراها. فقام إنجلز وماركس بنقد مالثوس الذي رأى المشكلة في الضغط السكاني على وسائل الإنتاج، مقالا إن المشكلة تكمن في ضغط وسائل الإنتاج على السكان (أي العكس). لكن الحقيقة هي أنّ الماركسية استبدلت العرق بالطبقة الاجتماعية (صراع عمّال البروليتاريا هو ضدّ رأسماليي البورجوازية)، وشدّدت في رغبتها في إعادة صنع البشرية بالوسائل القسرية (يوجينيكس أو الهندسة الاجتماعية) وفي اعتقادها بتقدّم البشرية عبر نضال الطبقات الكادحة لتنتصر على الطبقات البورجوازية. ثم إن مالثوس كان له تأثيرٌ كبير على عمليات ستالين التطهيرية في الثورة الروسية عام ١٩١٧ بالنظر إلى العوامل الديموغرافية التي استحثت الاقتصاد السياسيّ. ثم إنّ مالثوس أثر في كلٍّ من كارل ماركس، وماوتسي تونغ.

في الواقع، كانت هناك شخصيتان فكريّتان قد هيمنتا على كلّ القرن التاسع عشر: مالثوس وماركس، كانا ولا يزالان متعارضين نظاماً. وفي ١٩٧٠، جاء الكتاب المرجعي الأمريكي بعنوان «صراع الأنبياء: أستغفر الله»، الذي زوّد بما كتبه ماركس عن مالثوس.

إنّ لعلم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) أعظم الأثر الفكري في تأكل وتهميش النصرانية، التي لم تستطع لسوء حظها الوقوف في وجه التحدّي. ثم إنّ حدائق الحيوان البشرية (أو الاستعراضات الأثنية العرقية، أو قرى السود) صارت أشياء محسوسة لعلم الأنثروبولوجي ووسائل مهمة لتعزيز «العنصرية الشائعة»؛ وهذه الحدائق صارت شائعة من ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية الثانية، واستمرت مفاهيمها حتى في القرن الواحد والعشرين.

قامت قناة التلفزة البريطانية الرابعة في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٩ ببثّ فيلم وثائقي:

حديقة الحيوان البشرية: سرّ العلم القذر:

افتُتن لعلماء في القرنين التاسع عشر والعشرين بالعرق والعنصرية، إلى درجة أنّ الآلاف من السكان الأجانب الأصليين للبلاد البعيدة وراء البحار قد وضعوا للعرض في حدائق الحيوان البشرية في أوروبا وأمريكا. ولم يكن القصد مجرد عروض ترفيهية لشخوص غريبي الخلقة، بل لتكون العروض براهين علميةً لإيضاح الفروق العرقية. وحدّق الملايين من أنحاء العالم الغربي بافتتان إلى هؤلاء "المتوحشين غير المتحضرين" وكانوا يغادرون هذه الحدائق مقتنعين بتفوق العرق الأبيض. كانت أكثر هذه العروض إثارة تقامُ في باريس، وشيكاغو، وهامبورغ، ولندن. ففي ١٩٢٤، قام الملك جورج الخامس والملكة ماري بمُعاينة نماذج العرض الحيّة في معرض الإمبراطورية البريطانية في ويمبلي.

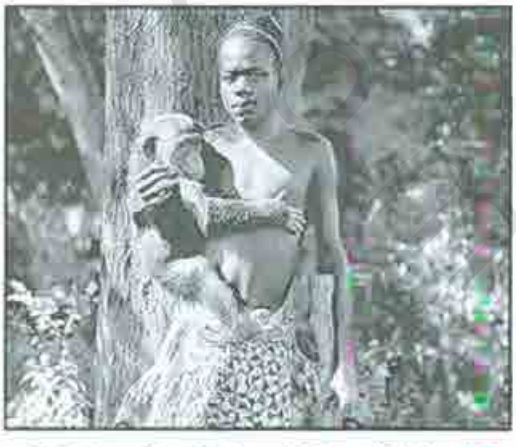

آوتا بينغا في حديقة الحيوان في برونكس عام ١٩٠٦

وأظهر الفيلم أنه لم تكن هناك إلا مجرد طفرة قصيرة من حدائق الحيوان البشرية إلى جرائم ألمانيا النازية المروعة المُمارسة تحت علم كاذب قام بدعم نظريّ للأول، ثم ساعد على تقنين للثاني.

ويستكشف الفيلم الوثائقي ظاهرة حدائق الحيوان البشرية ليحكي القصة المُبكية للقزم الإفريقي «أوتا بينغا» (ولد ١٨٨٣ تقريباً–١٩١٦/٣/٢٦) من عشيرة البطوة من كونغو تحت الاحتلال البلجيكي آنذاك، الذي جُلب إلى الولايات المتحدة عن طريق المبشر ورجل الأعمال صمويل فيليبس فيرنر، الذي حرر (بينغا) عام ١٩٠٤من تجار العبيد

البلجيكيين الذين قبضوا عليه بعد مهاجمتهم قريته وقتل زوجة بينغا وطفليه الاثنين. أوتا بينغا وُضع للعرض في معرض العالم في سانت لويس عام ١٩٠٤، ثم عرضوه في حديقة حيوانات برونكس (الولايات المتحدة الأمريكية) حيث وضع في حظيرة مُسيجة بصحبة قرد شمبانزي وعلّم عليه برقعة مكتوب عليها: **الحلقة المفقودة بين "القردة والأوروبيين"** لدعم مفاهيم التطور البشري والتمييز العنصري العلمي!!! فكثير من علماء الأنثروبولوجي (علم الإنسان) اعتقدوا أن الأفارم، بسبب اختلافهم عن العرق الأبيض، يمثلون الطور الابتدائي في تطوّر الإنسان من القرد. قام الاحتجاج العلني آخيراً بإخراج (بينغا) من حديقة الحيوان، وتحريره ليكون في رعاية رجل دين أمريكي من أصل إفريقي.

تنقل «أوتا بينغا» بين أيادي أربعة من علماء أمريكا البارزين: المُستكشف المبشر صمويل فيليبس فيرنر، وعالم الأنثروبولوجي وليم ماجي، وعالم الحيوان وليم تيمبل هورنيداي، وماديسون غرانت –واحد من أكبر العنصريين في أمريكا. أندلاع الحرب العالمية الأولى صار الرجوع إلى الكونغو متعذراً، ازدادت كآبة بينغا. وفي ١٩١٦، انتحر بمسدس مسروق.

كان غرانت رجلاً ثرياً ومن المحافظين على الطبيعة وعالم أنثروبولوجي هاوي، وهو الذي أنشأ حديقة الحيوان في برونكس. في ١٩٠٦، كان هو الذي دبّر وضع «أوتا بينغا» للاستعراض في حديقة الحيوان؛ الحادثة التي لم تكن للعرض المجرّد وإنما وسيلةً لتعليم الجماهير لبل لغسل الأدمغة! التمييز العنصري العلمي.

عندما مات ماديسون غرانت في ١٩٣٧، يُقال إنّ أسرته حرقت جميع أوراقه. وبقيت تركته الوحيدة في كتابه –**عبور العرق العظيم**. كان الأكثر مبيعاً حين طبعت طبعته الأولى عام ١٩١٦، وعزّز فكرة أنّ بقاء العرق السيّد الأبيض –«**عرق النورديك**» كما سمّاه غرانت –مهدد من قبل العروق الدنيا. ولكون غرانت من المؤمنين بـ**ل يوجينيكس**، فإنه ناقش أنّ التطور يجب ألا يُترك لمُصادفة الحظ. فناضل لتشريع قوانين تمنع الزواج المختلط (بين الأعراق المختلفة) وتحدد الهجرة إلى أمريكا. وقد سنّت هذه القوانين من الشعب الذي لان تحت وطأة حدائق الحيوان البشرية الذين صاروا متقبلين آراء غرانت.

ووجدت آراء غرانت تابعين لها في أنحاء العالم. في عام ١٩٣٠، ترجمَ كتابه: عبور العرق العظيم بالألمانية حيث مُنح ما يمكن عدّه تكريماً من أعظم أنواع التكريم. يشرح ذلك جون ماركس، عالم الأنثروبولوجي في جامعة نورث كارولينا قائلاً:

«استلم غرانت رسالة مُعجب به من نجم سياسيّ المانيّ صاعد، وهو يقول فيها: كتابك هو إنجيلي. وكان اسم الموقع هو أدولف هتلر». لقد اختفت مُراسلات غرانت الآن؛ وليست معنا تلك الرسالة ايضاً. لكن هذا شاهد عيان على أنه لوّح بهذه الرسالة متوعداً الجماهير، ليُريهم كم كان هو عظيماً وكم كان مدى تأثيره هو، وكيف أن الألمان أخذوا آراءه بمنتهى الجدّية. وظلّ هذا شيءٌ كان مُعجباً به ومتغطرساً به جداً.

وبعد ٣ سنوات، استولى هتلر على سلطة الحكم في ألمانيا وحوّل أفكار بطله إلى سياسة ملموسة. أقامت النازية مبدأ تمييز الأعراق العلمي كأساس للرايخ الثالث الألماني آخذةً بالأفكار المُعزّزة في حدائق الحيوان البشرية أكثر من غيرها، ومُقيمةً إياها على الإبادة المنظمة للأعراق الدون الرديئة، من أجل الدفاع عن عرقهم المتفوق، العرق الآري.

وفي محاكمات جرائم الحرب (العالمية الثانية) في نوريمبورغ عام ١٩٤٧، أدلى الأطباء النازيون باسم غرانت وبكتابه في دفاعهم – مُجادلين في أن الرايخ الثالث لم يكن إلا مُطبّقاً ناسخاً ومُقلداً للأفكار "أمريكية. يأثر

السادة الجماعية، صار خلط الأعراق مع العلم رجساً محظوراً، وطمرت معها أفكار ماديسون غرانت وعلماء الأنثروبولوجي المبكرين.

لقد بنى علماء الأنثروبولوجي أمثال ماديسون غرانت أو أليكسيس كاريل علم تمييز عنصري زائف، مستمدين ذلك من قراءتهم لـ جوبينيو مؤلف «مقالة في التباين في الأعراق البشرية» عام (١٨٥٣–١٨٥٥) المؤمن بتفوق العنصر الأوروبي الأبيض (في قدرات ذكائه على الآخرين) وبأنّ امتزاج الأعراق يؤدّي إلى انهيار الحضارة.

في ١٩٣٥، نشر كاريل كتابه الأكثر مبيعاً: (**الإنسان ذلك المجهول**)، الذي نصح أن البشرية تستطيع أن تحسّن نفسها، ولو جزئياً، باتباع إرشادات مجموعة علية من المفكرين المثقفين، وبتطبيق نظام تحسين نسل قسري (يجينيكس). وناقش كاريل أن الأنواع البشرية المنحرفة يجب قمعها باستخدام تقنيات مشابهة التي وظفتها النازية لاحقاً (القتل الرحيم للبالغين). في مقدمة الطبعة الألمانية لكتابه عام ١٩٣٦، أضاف كاريل إطراءاً لسياسات الرايخ الثالث في تحسين النسل (يوجينيكس)، وكتب: (**اتخذت الحكومة الألمانية تدابير حيوية ضد تكاثر المعوقين، ومرضى الأمراض العقلية، والمجرمين**).

وعينة أخرى من حدائق الحيوان البشرية هي سارجي (أي سارة) بارتمان المولودة في شرق كيب تاون بإفريقية الجنوبية (١٧٨٩–١٨١٥/١٢/٢٩) التي عرضت (بسبب هيئة وتقاسيم جسمها غير المألوفة) في الاستعراضات الجانبية الجذابة لأوروبا "القرن التاسع عشر تحت اسم فينوس هوتينتوت – «هوتينتوت» كان آنذاك هو اسم قبيلتها الخوي خوي (واسم اليوم يُعدّ سبّة) و«فينوس» إشارةً إلى الزهرة، إله الحبّ الروماني. كانت بارتمان مستعبدة ضمن الرقيق للمُزارعين الهولنديين. قرر كيب تاون أقنع أخا المالك للعبيد بتسفيرها إلى إنجلترة للاستعراضات، واعداً إيّاها بالغنى والثروة. فسافرت إلى لندن في ١٨١٠. وعرضت بارتمان في مناحي بريطانيا، وأجبرت على التعرّي وأن تدور بأردافها وعجزها لأجل ترفيه الناس. آثار استعراضها في لندن ضجة، لأنه جاء عقب سنوات قليلة من سنّ قانون لتحريم تجارة العبد عام ١٨٠٧، فأحدث فضيحة.

لذلك بيعت لرجلٍ فرنسيّ، أخذها معه إلى فرنسا للاستعراض أيضاً تحت ضغوط أكبر من ذي قبل ولمدة ١٥ شهراً. زارها العديد من علماء التاريخ الطبيعي منهم جورجيس كوفير، وصارت مادةً للعديد من لوحات الرسوم الزيتية العلمية. وعندما زالت غرابتها غير المألوفة من نفوس الباريسيين، بدأت تدمن الشرب ومن ثم أُجبرت على البغاء من أجل الإنفاق وإعالة نفسها. ثم ماتت مُبكراً في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨١٥ وعمرها ٢٦ سنة بسبب إصابتها بذات الرئة. فحصت جثتها، ونشرت نتائج الفحص عام ١٨١٦ ثم أعاد نشرها عالم التاريخ الطبيعي الفرنسيّ جورجيس كوفير في مذكرات متحف التاريخ الطبيعي عام ١٨١٧. قيّد "كوفير" ملحوظاته في مقالة خاصة قائلاً: إنّ بارتمان كانت امرأة ذكيّة وتمتلك ذاكرة ممتازة وتتكلم اللغة الهولندية بطلاقة. ووضعت أجزاء هيكلها وأعضاؤها التناسلية المحفوظة (!) مع دماغها للعرض لبعد موتها في متحف باريس الوطني وظل معروضاً حتى عام ١٩٤٧، ثم أزيلت من العرض العلني ووضعوها في مستودع لمنع مشاهدتها؛ استبدلت بنسخة منحوتة مصبوبة للعرض لسنتين لاحقتين.

كاريكاتير تحقيري ساخر يصوّر سارجي بارتمان (أو فينوس هوتينتوت)

ومن ثم برزت قضيّتها عام ١٩٨٠ بعد أن قام عالم المتحجرات الأمريكي ستيفن جاي جولد بالكتابة عنها وتشبيهها بالزهرة، إله الحبّ الروماني، فسماها «فينوس هوتينتوت» (هوتينتوت هو اسم قبيلتها). بعد انتصار حزب الكونجرس الإفريقي الوطني في الانتخابات العامة لإفريقية الجنوبية عام ١٩٩٤، قام الرئيس نيلسون مانديلا بطلب رجاع بقاياها رسمياً من فرنسا. وافقت فرنسا، بعد كثيرٍ من المجادلات والمناظرات القانونية في مجلس فرنسا الوطني، على قبول طلب الرئيس مانديلا في ٦ آذار ٢٠٠٢. وأعيدت بقاياها إلى أرض الوطن في ٦ أيّار ٢٠٠٢، وأخيراً رقدت جثتها بعد الموت تحت التراب في ٩ آب ٢٠٠٢ أي بعد ٢٠٠ سنة من ولادتها.

حتى اليوم، وبعد انتخاب **براك اوباما** أول رئيس أسود للولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٩، تظل العنصرية شعوراً حيّاً داخلياً يحرك العديد من صناع القرار في الأمم المتحدة، ورؤساء دول أوروبا، وزعماء أحزابها، ووسائل الإعلام، والقضاة البيض في المحاكم القانونية، والرؤساء في المؤسسات الرسمية والخاصة، وفي الشرطة والجيش، والفنون، بل وفي الاختبارات العلمية، وفي التوظيف وقرارات العلاوات المادية والمعنوية، ليصبغ قرارات صُنّاع القرار (غالباً إن لم يكن دوماً) بالجور والبطلان ضدّ السود والملوّنين، وبالتحيز المستور والمعلن لمصلحة المواطنين البيض. بل إنّ الأفلام السينمائية لا زالت تعرض قصصاً حول تهديدات فناء الجنس البشري المؤقت (بسبب اصطدام نجم مذنب بالأرض مثلاً)، فيلجؤون إلى ملاجئ الإنقاذ إلى حين انتهاء هذا الانفجار الوهمي. وفي أثناء ذلك، لا يُسمح بدخول الملاجئ إلا لأفراد الجنس البشري الأبيض الأذكياء، ومعهم حيواناتهم (لأجل تكاثر واستعمار الأرض من جديد)، تاركين وراءهم الملوّنين والسود المتخلفين (في اعتقادهم) لحتفهم ليموتوا من دون عون!

الميراث اللغوي البغيض للعنصرية وطبقات المنبوذين:

إنّ ما يسمّى بالعنصرية العلمية قد أثرت تأثيراً بالغ الخطورة في اللغة الإنجليزية والأوروبية (لاسيما الإسبانية) وزوّدت مُفرداتها اللغوية بكوكبةٍ كبيرةٍ من الكلمات العنصرية المُخزية، بل والمُروّعة، إلى درجة أنّ أوروبا اليوم تحاول عدّها كلمات مندثرة مهجورة من أجل طمر تلك الحقبة التاريخية وطمسها (تلك الحقبة المرتبطة بهذه الكلمات) وإخفائها من بساط البحث، وذلك بسبب الوطأة القانونية للميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان (التي وُضعت مسودته عام ١٩٥٠، ودخل حيز التطبيق في ٣ أيلول ١٩٥٣)، وقانون حقوق الإنسان البريطاني لعام ١٩٩٨ اللذين يتضمنان الحقوق والحريات الأساسية الجوهرية المكفولة التي تشمل: حقّ الإنسان في الحياة، والحقّ في التحرر من التعذيب والمعاملة المهينة، والتحرر من الرق العبودية والعمل الإجباري، وحرية الفكر والضمير والدّين، وحرية التعبير عن المعتقدات؛ وحق الإنسان في التحرر (العيش في وطن حرٍ دونما استعمار).

شرح البروفيسور وورد تشرشل في كتابه: "**مسألة صغيرة حول الإبادة الجماعية—محرقة الإبادة الكاملة وإنكارها في الأمريكتين من عام ١٤٩٢ حتى الوقت الحاضر**" (نشرته كتب سيتي لايت في سان فرانسسكو، ١٩٩٧) في صفحة ١٠٧–١٠٨، أن الأنظمة الاستعمارية في الأمريكتين الجنوبية والوسطى، مع المكسيك و لجزء الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة المعاصرة، قد استعمرت البلاد لأجل تقوية النظام الجديد في المقاطعات الخاضعة لنفوذها، بحسب قواعد عنصرية صارمة ومفصلة ومعقدة ومُشينة. سرد الكاتب الأمريكي اليكسيس دي توكفيل هذه المقولة:

(هذا الرجل المولود في المهانة، هذا الغريب بيننا والدخيل إلينا عن طريق الرقّ (العبودية)، فالكاد يمكن عدّه مشتركاً معنا في مزايا الإنسانية العامة. فوجهه يبدو شنيعاً لنا، ذكاؤه محدود، وذوقه خسيس؛ ونحن على الغالب نعدّه أشبه بكائن وسيط بين الإنسان والبهائم).

وفي جزء من إحدى قواعد القانون النافذ في إسبانية الجديدة (أي الحكم الإسباني في أمريكا الجنوبية والوسطى) في القرن الثامن عشر، يوضح كل هذه القوائم المُصنفة في أمريكا المحتلة من قبل الأيبيريين (الاسبان والبرتغاليين) توضح تدرج المتبوذين المُخلطين من علاقات وزيجات مختلطة بين الأعراق الثلاثة الصافية الأصيلة في أمريكا: القوقازي الأبيض، والإفريقي الأسود، والهندي الأمريكي):

١. إسباني مع هندية [امريكية] ينجبان مَستيزو (مزيجٌ اي مُخلّط).
٢. مَستيزو (رجل أو امرأة) مع امرأة إسبانية (أو إسباني) ينجبان كاستيزو.
٣. امرأة أو رجل كاستيزو مع إسباني أو إسبانية ينجبان إسباني.
٤. امرأة إسبانية أو إسباني مع زنجي او زنجية ينجبان مولاتو (مولد).
٥. إسباني أو إسبانية مع امرأة مولاتو (مولدة أو مولّد) ينجبان موريسكو (مغربي).
٦. امرأة موريسكية مع إسباني ينجبان ألبينو.
٧. إسباني مع امرأة ألبينية ينجبان تورنا آتراس.
٨. هندي [أمريكي] مع امرأة تورنا آتراس ينجبان لوبو (بمعنى الذئب).
٩. لوبو مع امرأة هندية ينجبان زامياگو.
١٠. زامياگو مع امرأة هندية [امريكية] ينجبان كامبيوجو.
١١. كامبيوجو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان آلبارازادو.
١٢. آلبارازادو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان بارسينو.
١٣. بارسينو مع مولاتو (مولد او مولدة) ينجبان كويوت.
١٤. امرأة كويوت مع هندي [امريكي] ينجبان شاميسو.
١٥. امرأة شاميسية مع مَستيزو ينجبان كويوت مَستيزو.
١٦. كويوت مَستيزو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان اهي تي إيستاس.

وتكمل أسماء هذه القائمة المُشينة نظام معقد آخر لهذا التركيب العنصري الاجتماعي في مُستعمرة مكسيكو (وردت أصلاً في بحث نيكولاس ليون في ١٩٢٤ (الاس كاستاس مَستيزج ديل مكسيكو كولونيال و نيوفا اسبانا)، وجرى اقتباسه في م. د. أوليان ١٩٧٣، الأمريكان اللاتينيون: الشعوب المعاصرة وعاداتهم الثقافية، صفحة ٩٤):

١٧. موريسكو (مغربي) مع إسبانية ينجبان چيو.
١٨. چيو مع هندية امريكية ينجبان سالتا آتراس.
١٩. سالتا آتراس مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان لوبو.
٢٠. لوبو مع امرأة چيو (أي چينا) ينجبان جيبارو.
٢١. جيبارو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان آلبارازادو.
٢٢. آلبارازادو مع امرأة سوداء ينجبان كامبيوجو.
٢٣. كامبيوجو مع هندية أمريكية ينجبان سامبيوجو.
٢٤. سامبيوجو مع امرأة لوبو ينجبان كالبا مولاتو.
٢٥. كالبا مولاتو مع امرأة كامبيوجو ينجبان تنتي إنلا أير.
٢٦. تنتي إنلا أير مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان تو تي إنتيندو.
٢٧. تو تي إنتيندو مع هندية أمريكية ينجبان تورنا آتراس.

وُضع هنود أمريكا الأصليين في الحضيض الأسفل من تدرج هذه القوائم، وفي العديد من الحالات يعدون عملياً لا وجود لهم البتة. إنّ هذا الموقف يمثل أقصى حالات الوسوسة القسرية الأوروبية نحو غير الأوروبيين.

واليوم وإنْ أُسقطت أنظمة التبويب قانونياً، لكن التحيّز الاجتماعي المُجحف، والاستغلال الاقتصادي لا زال مستمراً لا يهدأ. بالرغم من أن القمع العنصري المُعلن لم يعُد مسموحاً به قانونياً، لكن الناس لا زالوا محتفظين بآرائهم الشخصية نحو الأعراق الأخرى بناءً على أفكار متحيّزة سابقة. وقد قام المعهد البرازيلي للجغرافية والإحصاء في عام ١٩٧٦ بدراسة لتصنيف الناس على أساس عرقي عبر سؤالهم لتعيين ألوان جلودهم، وانتهى إلى ١٣٤ مصطلحاً رُتبت ترتيباً أبجدياً.

تصوير مستيزو في لوحات المتبودين في المكسيك في مدة الاستعمار الإسباني.

الصورة تظهر: إسباني مع هندية أمريكية منجبين مستيزو.

امرأة إسبانية مع زنجي ينجبان مولاتو (مولد)

إسباني مع امرأة هَستيزو ينجبان كاستيزو

إسباني مع مولاته (أي مولدة) ينجبان موريسكو
(مغربي)، (نحو ١٧٦٣)

لوحة تظهر زنجياً مع هندية أمريكية مُنجبين لوبو، وهو هنا بديل لـ زامبو.
تصوير لطفل زامبو، في لوحات المنبوذين من إسبانية الجديدة في القرن الثامن عشر

هندية أمريكية مع مولاتو (مولد) ينجبان چينو

مستيزو مع هندية أمريكية ينجبان كولو

زنجيّ مع امرأة مولاته (مولدة) ينجبان أيضاً سامبو (زامبو)، [المدرسة الهندية، ١٧٧٠]

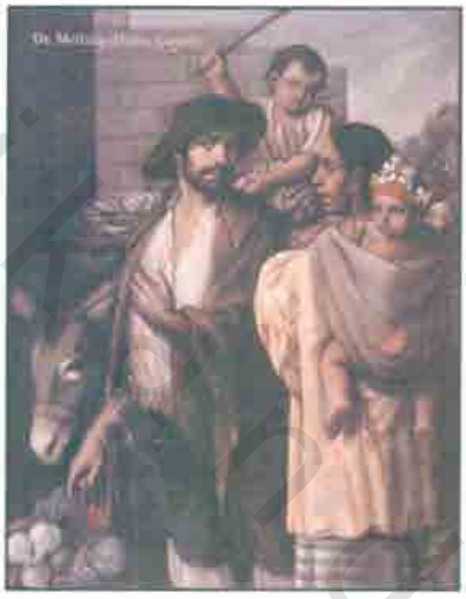

مَستيزو مع هندية أمريكية ينجبان كُويوت.

نموذج من ألواح المنبوذين من أهالي بيرو

يظهر زواجاً مختلطاً بين مجموعة المنبوذين. مَستيزو، مَستيزو، مَستيزو.

انظر: المصادر في الشبكة العنكبوتية تحت عنوان: Casta . وانظر أيضاً: Yasmin amirez

"New World Orders: Casta Painting and Colonial Latin America at the Americas Society" artnet Magazine (December 2, 1996)

إضافةً إلى الأسماء المهجورة من الذين وُلدوا من زيجات مختلطة هناك، مثل:

تيرسيرون (ثلث أسلافه من الزنوج)، كوارتيرون (ربع أسلافه من الزنوج)، كوينتيرون (الخامس في سلالة من أصل زنجي وأوروبي) وهذه لا تحتاج شرحاً. ولا يزال أهالي بيرو الإسبان يحتفظون بمصطلحات كولو (مولود من أسلاف مستيزو مع هنية أمريكية)، وچينو. لكن من يتذكر اليوم أهمية هذه الأسماء، مثل: كاستيزو، موريسكو، لوبو، جيارو، البارازاو، كامبيوجو، بارسينو، بوشيل، كويوت، شاميسو، جالفارو، جينيزارو، جريفو، جاروشو، ساماجو، أو أكثر الأسماء زخرفة: سالتا اتراس، تنتي إنلا ايز، نو تي انتيندو، اهي تي إيستاس، وغير ذلك..!

باختصار، كان تمازج الأجناس (المُسمّى ميزجينيشن من اللاتينية ميز: أي يمتزج، أو العربية مزيج، مع كلمة: جينيشن من جنس) مصطلحاً أوروبياً جاء مع الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد منذ عصر الاكتشافات، وتاريخياً: فالمصطلح كان يستخدم قانونياً بعد تحرر العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية بحسب القوانين المانعة لتمازج الأجناس عن طريق الزواج أو الجنس، والمسمّاة بـ: قوانين منع تمازج الأجناس. لذلك فالمصطلح يعدّ اليوم عدوانياً إلى حد ما. وتمازج الأجناس يعني امتزاج الأجناس المختلفة عن طريق الزواج، والتعايش (بين خليل وخليلته دون زواج)، والعلاقات الجنسية (علاقات عابرة محرمة)، والإنجاب التناسلي (وكلها علاقات حرمها الإسلام عدا رقيق الحروب الذين يصبحون مملوكين ملك يمين مع ضرورة حسن معاملتهم والإحسان إليهم).

عموماً، يشمل تمازج الأجناس (كما رأينا) ثلاث مجموعات من الذرية:

١. إسبان مع هنود أمريكان (مثل: مستيزو وكاستيزو).
٢. إسبان مع أفارقة (مولاتو وموريسكو).
٣. هنود أمريكان مع أفارقة (زامبو، لوبو، كويوت).

قارن وباين بين التاريخ الأوروبي والتاريخ الإسلامي في الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد. لم يكن تنصّرُ السكان الأصليين (الهنود الأمريكان والسود) وتحولهم إلى النصرانية ليضمن إعطاءهم مراكز نظراء مقابلين للأوروبيين بالمساواة الإنسانية؛ في الواقع إنّ نظام المستعمرين المُهين في تصنيف طبقات المنبوذين، فضلاً على الوسْمية الأوروبية (في معاملة كلّ من هو غير أوروبي على أنه أقل من رتبة الإنسان: بل أحياناً تسميتهم بأسماء الحيوانات مثل: لوبو و كويوت أو قيّوط وتعني الذئاب) قد أدت إلى ثورات قام بها أولاد هؤلاء الأوروبيين أنفسهم (من تمازج الأجناس مع هنود أمريكا أو مع الأفارقة) ضدهم أي ضدّ الأوروبيين! لكن في التاريخ الإسلامي، فإنّ كثيراً من قادة الإسلام المرموقين؛ بل ومن خلفاء الإسلام كانوا أولاداً لأمّهات من الإماء غير العربيات؛ لقد عومل العبد والإماء غير العرب وغير المسلمين معاملةً حسنة طبقاً لمنظومة الإسلام الكاملة في القيم الأخلاقية، إلى درجة أنّ كثيراً منهم قد أُعتقوا لوجه الله.

أمّا العبيد الذين أسلموا فقد أُعتقوا، وتمّ تزويجهم كأزواج وزوجات شرعيين، أو أنهم أُعتقوا ليكونوا إخوة وأخوات في الإسلام، يمتازون بالموقع الإنساني نفسه والحقوق والواجبات للمسلمين العرب الآخرين.

كان النبي محمد ﷺ هو القدوة الكبرى والمرجعية الأولى للمسلمين؛ فكانت مولاة رسول الله وحاضنته هي أم أيمن الحبشية السوداء، ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، التي كان عندها زيد بن حارثة وهو ابن ثمان سنين من سبي الجاهلية، فوهبته لرسول الله، فتبناه بمكة قبل النبوة، ونشأ زيد في أحضان النبي وأحبّه، حتى أن زيداً خُيّر بين النبي ﷺ وبين أبيه وعمّه، فاختار النبيّ ﷺ عليهما حتى سُمي "زيد بن محمد". وكان النبي ﷺ يحبّ أم أيمن حباً شديداً ويعدّها من أهل بيته، ثم زوّجها زيد بن حارثة (وهو أبيض اللون) أيام البعثة النبوية، فولدت له أسامة بن زيد (أسود اللون)، الذي سُمي حبّ رسول الله ﷺ. ثم إنّ إبراهيم ابن النبي محمد ﷺ كان من أمته

مارية القبطية المصرية. وحين أسلم بلال الحبشي (العبد الأسود) أعتقه أبو بكر، ومن ثم صار مؤذن النبي الخاص وسيّد من سادات المسلمين. وفي زمن عمر بن الخطاب، حين سُبيت بنات يزدجرد، صارت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالماً، والأخرى لمحمد بن أبي بكر فأولدها القاسم. والأخرى للحسين بن علي بن أبي طالب فأولدها علي زين العابدين. فسالم والقاسم وعلي زين العابدين هم بنو خالة! ثم إن جميع الحسينيين اليوم هم من نسل علي زين العابدين (في رواية أنّ أمه سندية وليست فارسية). كذلك فإنّ الكثير من قادة الفتح الإسلامي كانوا أولاد إماء، فمثلاً:

زياد بن أبي سفيان الوالي الداهية (في زمن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، والخليفة معاوية بن أبي سفيان) كانت أمّه سُمَيّة جارية الحارث بن كلدة طبيب العرب الشهير؛ ومسلمة بن عبد الملك فارس بني أمية المُلهم كانت أمُّه جارية (تسمّى أم البنين أو أمّ ولد رفعة لقدرها). وهذا طارق بن زياد البربريّ الأصل (٥٠-١٠٢هـ ٦٧٠-٧٢٠م) فاتح الأندلس، كان مولى لموسى بن نُصير عامل بلاد المغرب (من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك). وقد أسلم طارق على يد موسى بن نصير وتعلم القراءة والكتابة وحفظ سوراً من القرآن الكريم وبعضاً من أحاديث النبي ﷺ ثم ساعده حبه للجندية في أن يلتحق بجيش "موسى بن نصير" أمير "المغرب" وأن يشترك معه في الفتوح الإسلامية، وأظهر شجاعة وبراعة فائقة في القتال والقيادة، لفتت أنظار موسى بن نصير، فعهد إليه بفتح شمال إفريقيا وجعله قائد جيوش البربر التي فتحت شبه جزيرة أيبيريا. أسلمت على يد طارق القبائل الوثنية في الإسلام ومن بينها قبيلته هو أي قبيلة نفزة البربرية، وحارب طارق المشركين ودخل الكثيرون منهم في الإسلام. وبعد نجاحاته عيّنه موسى بن نصير والياً على طنجة.

بل إنّ كثيراً من الخلفاء كانوا أبناء أمهات البنين، فمثلاً: يزيد بن الوليد بن عبد الملك كانت أمُّه أم ولد. كذلك مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كانت أمُّه كردية اسمها لبابة (وهي جارية إبراهيم الأشتر، أخذها أبوه محمد من عسكر إبراهيم، فولدت له مروان). وهذا أبو جعفر المنصور خليفة العالم الإسلامي (١٣٦-١٥٨هـ) كانت أمُّه أم ولدٍ بربرية اسمها "سلامة"، ومن ثم استقرّت الخلافة في ذريته (فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته).

وقد عاصر أبا جعفر المنصور عبدُ الرحمن الداخل الأموي أمير الأندلس (الذي سمّاه المنصور بـ "صقر قريش") وكان هذا أيضاً من أمة بربرية اسمها "داح" من قبيلة نفزة المغربية (قبيلة طارق بن زياد)، وقد استفاد عبدالرحمن من هذه القرابة حين فرّ إلى المغرب وتولّى إمارة الأندلس التي استقرّت من بعده في ذريته حتى عُرفت بحقبة إمارة الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ، ٧٥٥-٩٢٨م). وكان الناس يقولون آنذاك: تلك الأرض يحكمها ابنا بربريّتين — ويعنون عبد الرحمن والمنصور. بل إنّ أعظم ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي هو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حرر القدس من الصليبيين تحريراً نهائياً، ووحّد مصر والشام ككماشة ضدّ الصليبيين (صلاح الدين الثاني) قد كان ابناً للملك الكامل من جارية سوداء اسمها "ورد المنى"، واشترى الملك الصالح نفسه جارية اسمها "شجر الدرّ" أحبّها ثم أعتقها وتزوجها، وبعد موته أكملت مشوار النصر لزوجها وأبلت بلاء منقطع النظير في صدّ الحملة الصليبية السابعة على مصر. ثم صارت هذه الأرملة أول ملكة للمسلمين: بل إنّ الملك الصالح هذا هو الذي اشترى المماليك في مصر ورباهم كمفرخة للملوك إسلام أسطوريين من طراز صلاح الدين مثل: قطز، بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، الذين تصدّوا لتحطيم أسطورتي المغول والصليبيين وإنهائهما، الذين كانا أكبر خطرين يحدقين بالعالم الإسلامي آنذاك، (هذا بالرغم من التحالف المغولي — الصليبي ضد الإسلام).

كان مُستيزو وهو مصطلح استعماري إسباني وبرتغالي (مستيكو) مستعملاً في الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية في أمريكا اللاتينية للإشارة إلى الناس المنبوذين المُخلّطين من أسلاف أوروبية وهندية أمريكية. يُمثّل مُستيزو غالب سكان أمريكا اللاتينية.

كلمة **مستيزو** مشتقة من العربية **مزيجُ** (من الفعل مزج) ومن اللاتينية **ميكستيوس** أي ممتزج. في اللغة البرتغالية والفرنسية تستخدم الكلمتان **كابوكلو**، **ميتس** في إمبراطورياتهم لتحديد الأشخاص من أسلاف السكان الأصليين المخلوطين مع الأوروبيين. بحسب المؤرخين مايكل ماير و وليم شيرمان فإنّ استعمال إسبانية الاستعمارية لمصطلح **مستيزو** في القرن السادس عشر "كان في الغالب مقرونا باللقيط" (أي الابن غير الشرعي). تحت نظام المنبوذين في أمريكا الإسبانية وفي إسبانية، فإنّ مصطلح **مستيزو** أصلا ينطبق على الأطفال الناتجين من الاتحاد بين أبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي أو الأطفال الناتجين من أبوين كليهما **مستيزو**. في أثناء هذه الحقبة، استعملت مصطلحات عديدة أخرى تشمل كاستيزو (وهو شخص ثلاثة أرباعه أوروبي، ربعه هندي أمريكي)، كوارتيرون الهندي، وكولو (وهو شخص ربعه أوروبي، وثلاثة أرباعه هندي أمريكي) لتشير إلى الأفراد ذوي الأسلاف الأوروبية–الهندية الأمريكية المختلطة بنسب أقل أو أكثر من نسبة **مستيزو** الـ ٥٠:٥٠. وهذه المصطلحات تستخدم غالبا بدلالات سلبية.

مولاته أو **مولدة** (من العربية والذكر مولاتو وبالعربية مولد) بدأت نتيجة لتفاعل الإمبريالية الإسبانية مع عبودية الرقيق في مستعمرات كوبا الزراعية للتبغ والسكر. فهي جاءت نتيجة لعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية وأحيانا نتيجة لاستغلال العنيف للنساء السود من قبل الرجال البيض. ثم صارت مصطلحا مشينا عند الأوروبيين: "قد اكتسبت صبغة جنسية من قبل الرجال البيض في القرن التاسع عشر، وتقدّم كـ "امرأة طليقة دون ارتباط"، ثم صارت توظف للاجتذاب السياحي للرجال الأوروبيين والأمريكيين في القرن العشرين (المحمومين بالجنس). ويُنظر إلى **مولاته** (أو المولدة) بالطريقة نفسها في الكاريبي وأمريكا اللاتينية وفيها البرازيل. في كوبا كما هو في البرازيل، أصبحت مولاته أيقونة" وطنيّة بل رمزا للتمايز الطبقي العنصري الاقتصادي والجنسي.

سامبو (أو **زامبو**) هو مصطلح عنصري للأفراد المنبوذين من أصول هندية أمريكية مُخلّطة مع أصول إفريقية في الكاريبي، ويستعمل أيضاً على نحو غير محدد للفرد الأسود في أمريكا الشمالية وفي المملكة المتحدة (بريطانيا وايرلندة). يُعدّ الاسم لطخة عنصرية. ربما دخلت الكلمة «سامبو» إلى الإنجليزية من كلمة أمريكا اللاتينية الإسبانية زامبو، التي بدورها وفدت من إحدى مصادر ثلاث من اللغة الإفريقية. فمعجم ويبستر (طبعة المعجم العالمية الثالثة) يعدّ لكلمة قد جاءت من كلمة الكونغو نزامبو (أي قرد). مصدر آخر يعدّها كلمة من قبيلة فوله وتعني "أعمَ" أو كلمة من قبيلة هوسة وتعني "الابن الثاني". لكن الأقدمية الإسبانية الملكية تجعل الكلمة من أصل لاتيني وتعني بالإسبانية الحديثة "مقوّس الساقين" (إشارة للأفارقة).

زامبو هو مصطلح إسباني (يقابله المصطلح البرتغالي **كافيوزو**) مستعمل في الإمبراطورية الإسبانية. وفي يومنا الحاضر لتمييز الأفراد المنبوذين من أسلاف إفريقية مُخلّطة بالأصول الهندية الأمريكية (يقابله المصطلح الإنجليزي **سامبو** الذي يُعدّ اليوم وصمة عار). الكلمة المؤنثة هي **زامبه** (بحب عدم خلطها بفولكلور رقص **سامبا** الأفرو–برازيلي، أو موسيقى سامبا، أو فولكلور الرقص الأرجنتيني يُظن أنّ الكلمة عربية من زمبة أو زنبة أو زمّر موسيقى شعبية، فطورها الأسبان إلى رقص وموسيقى بعربدة جنسية في احتفال كرنفال سنوي).

كان **زامبو** الأوائل، بداية، هم ذرية العبيد الأفارقة وأغلبهم من المسلمين الذين هربوا من المستعمرات الزراعية (بسبب وحشية المعاملة) ومن حطام السفن (عبر طرق تجارة العبيد في السفن، حيث يُحشرون فيها مثل عُلب سمك السردين)، وقاموا بمغامرات في مختلف غابات أمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية، والكاريبي، بحثاً عن ملاذ الأمان. التحق هؤلاء بمجتمعات الأمريكان الهنود النائية للاختفاء، والهرب من الاعتقال من السلطات الاستعمارية. مثل لذلك جزيرة **إسبانيولا** (حاليا هايتي وجمهورية دومينيكان) حيث لاقى العبيد الهاربون بعض بقايا قبائل **تاينو**.

فحدث اختلاط عرقي وأخوي. واليوم تمثل مجموعة هؤلاء الأفرو – أمريكي نسبة صغيرة من سكان هايتي وجمهورية دومينيكان. كان الهنود الأمريكان – وهم أحياناً تحت وطأة التطويق الاستعماري الأوروبي – متعاطفين تماماً مع ورطة وابتلاء هؤلاء العبيد الهاربين، فرحّبوا بهم في مجتمعاتهم وقدّموا لهم الطعام والمأوى. وغالب ما قدّموا بناتهم لهم كزوجات. لذلك، فالأسلاف الأفارقة في جاريفونا هم عادةً ينتسبون إلى العبيد الهاربين من حطام السفن. في حين أن زامبو في الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية هم من لوبو المكسيك، وغالب زامبو الآخرين يعتقد أنهم عموماً منحدرين من العبيد الهاربين من المستعمرات الزراعية.

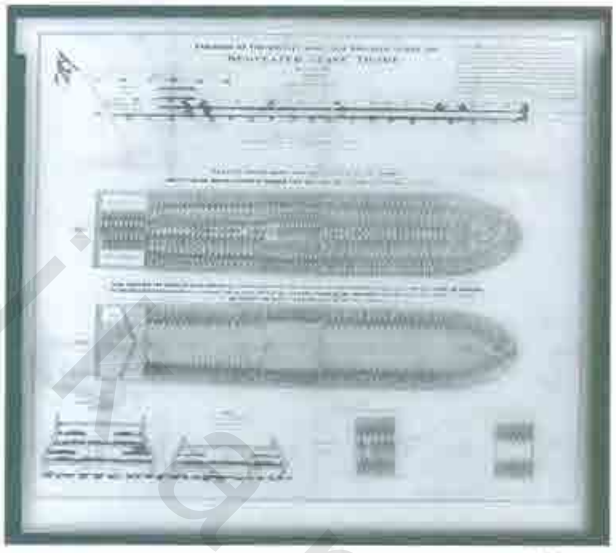

رسم توضيحي يُبيّن إيواء وتحميل الأفارقة العبيد على متن سفينة عبيد بريطانيا
(يكدّسون مثل علب سمك السردين)

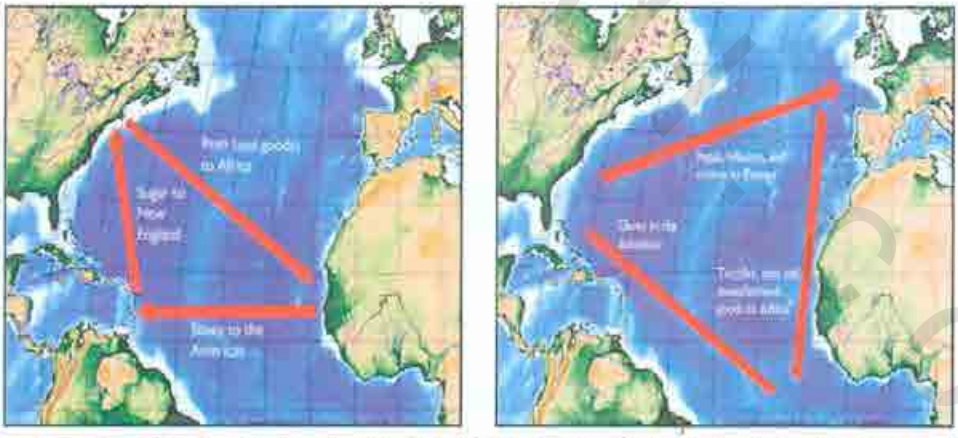

مثلث تجارة العبيد، والسكر، وشراب رام المسكر (مع التبغ والقطن والقماش والبضائع المصنوعة) بين إفريقيا، وجزر الكاريبي وبين أوروبا أو إنجلترا الجديدة (أمريكا) كراس زاوية المثلث الثالثة

وكما في أمريكا الشمالية في مدة استعباد الرقيق، ففي تاريخ أمريكا اللاتينية توجد أيضاً شواهد على توحّد الأفارقة مع هنود أمريكا (الهنود الحمر) واجتماعهم سوية مكوّنين معسكرات تمرد حرة لمحاربة المستعمرين الأوروبيين ومُلاّك العبيد من الإقطاعيين. في أمريكا اللاتينية، سُمّيت هذه المستوطنات (التي هي أساساً للأفارقة العبيد المسلمين الهاربين أو مارون) مستوطنات كلومبوس (عبر طرق تجارة العبيد، فإن سكان وسط أنغولا من

الماثلين والمتمردين (يسمون إمبنغالا) أنشؤوا مؤسسة تسمى كيلومبو لتوحيد القبائل المختلفة أنسابها المتعددة تهدف إلى صهر الجميع في بوتقة جماعية موحدة لأجل المقاومة العسكرية في زمن الاضطراب، وربما تكون من العربية كلمة أي وحدة الكلمة). ومن أشهر الكلومبوسات هو معسكر **بالماريس** الأسطوري في البرازيل. في ذروة فاعلية هذا المعسكر، كان تعداد سكانه الرسمي يزيد على ٣٠٠٠٠.

نساء كلومبولاس البرازيليات لا زلن يرتدين غطاء الرأس الإسلامي

يؤلف **زامبو**، رسمياً، أقليات صغيرة في أقطار الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية في: كولومبيا، فينزويلا، إيكوادور. وتعرف المجتمعات الموجودة في البرازيل في المنطقة الشمالية الغربية للبلاد خصوصاً بـ **كافيوزو**.

في هندوراس، يُعرفون بـ **جاريفونا**. برغم وجود زامبو أيضاً في أقطار الكاريبي وأمريكا الجنوبية الأخرى، مثل جمهورية دومينيكان، بيليز، نيكاراجوا، لكن تاريخهم وأصولهم ليست مرتبطة بالضرورة بمجتمعات جاريفونا.

في المكسيك، حيث يعرفون **لوبو** (حرفياً تعني ذئب)، فإنهم كانوا يُمثلون أقليّة كبيرة في الماضي. غالبية لوبو اليوم قد تمّ امتصاصهم وتداخلهم ضمن مجموعة سكان المكسيك الأكثر عدداً: **مستيزو**.

جيبارو هم جموع الفلاحين القاطنين في الجبال أو في الغابات، اسمهم مشتقّ من الكلمة جيبارو بمعنى **التلّ**، ومن العربية جبالٌ، حيث تستخدم الكلمة في بورتوريكو، والكلمة مرتبطة بكلمة **جيفارو**.

جروشو هو شخص موسيقار من **فيراكروز** المكسيك (كما في الصورة آنفاً). إحدى الشروح عن أصل المصطلح جروشو أنه تطور من كلمة إسبانية قديمة بمعنى فظّ أو فوضوي. جروشو يمثلون **اندماج السكان الأصليين (غالباً هستيكان)** في الأسيان، وفي **عناصر الموسيقى الإفريقية**، وتظهر صورة السكان الذين نشؤوا في هذه المنطقة منذ زمن الاستعمار الإسباني.

جينيزارو وبابلو:

جينيزارو والمنحدرون من أصلابهم هم سكان الهنود الأصليين الذين أستوطفوا كعبيد وخدم في البيوت ورعاة للماشية في بيوتات الأسيان والمكسيك وجنوب غرب أمريكا، حتى ١٨٨٠. في نهايات ١٧٠٠، كان **جينيزارو**

والمنحدرون من أصلابهم غالباً ما يُشار إليهم بال "كويوت" (تعني ابن آوى)، وكانوا يمثلون الثلث من عدد السكان الكلي في نيو مكسيكو.

إنّ مصطلح **جينيزارو** مشتق من كلمة "جانيساري" أي **إنكشاري**، وهم العبيد الذين أُحسنت معاملتهم وتدريبهم كجنود، ودمجهم كمواطنين في الإمبراطورية العثمانية. لكن في حالة **جينيزارو**، اشتكى العديد من هؤلاء الأسرى من سوء معاملتهم من قبل أسيادهم الأوروبيين. لذا تمّ تحريرهم ومنحهم أراضي ليستوطنوها على الحدود المحيطة بالمستوطنات الإسبانية. وبهذه الطريقة المتحايلة، صار **جينيزارو** يخدمون كمجمّعات حاجزة لحماية المدن الإسبانية وصدّ هجوم القبائل المناوئة المعادية للاستعمار الإسباني.

پابلو هو مصطلح لوصف مجتمعات سكان أمريكا الأصليين حديثاً وقديماً في جنوب-غرب الولايات المتحدة الأمريكية. لقد استخدم المستكشفون الأسبان الأوائل لجنوب-غرب أمريكا هذا المصطلح لوصف المجتمعات في المباني المؤلفة من عدة وحدات سكنية كالغرف أو الشقق، والمبنية من الحجارة، وطوب الطين، والمواد المحلية الأخرى.

وقد كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في المكسيك سيئة جداً إلى درجة أنه في عام ١٨٣٧ ثار هنود أمريكا من جينيزارو وپابلو مع آخرين ضدّ الحكومة المكسيكية، وقطعوا رأس الحاكم المكسيكي البيتو **پيريز**، وقتلوا جميع أفراد القوة الحامية المكسيكية في سانتا في. وألفووا حكومة جديدة وانتخبوا **جوسي انجل گونزاليز**، وهو **جينيزارو** (من پابلو طاو من أسلاف پاوني) حاكماً جديداً لها. وأُشير إلى هذه الثورة (بحسب تصنيفات المستعمرين) على أنها "ثورة شيمايوسو" نسبة إلى مجتمع **شيمايو** الشائن السُمعة والقاطن شمال نيومكسيكو، حيث كانت موطن **گونزاليز**، وموطن كثير من الهنود الأمريكان ذوي الدماء المُختلطة. كانت هذه الثورة مثالاً واحداً من العديد من ثورات الهنود الأمريكان-السكان الأصليين-ضدّ الحكومة المكسيكية في أثناء هذه المدة، وتشمل أيضاً ثورة مايا في يوكاتان.

رفض الإسلام للداروينية، ولداروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العنصري العلمي!)

إنّ النصرانية المحرّفة هي التي تصادمت مع العلم الصحيح عبر محاكم التفتيش الكنسي الكثوليكي التي بطشت بالعلماء (أمثال جاليليو جاليلي)، وهي التي استحثت العلماء (نتيجة لذلك وكردّة فعل) على رفض سلطة الكنيسة وجبروتها وتنحيتها عن السياسة والحياة وتحجيرها في النطاق الشخصي (أي إنه خطأ ولّـ خطأ)، فقام العلماء بحبك نظريات علمية جدلية (ملفقة باطلة) من أجل التصدّي للنصرانية كدين، ومن ثم الترميز عبرها لكلّ دين (ظناً منهم خطأً أن الإسلام لا يختلف جوهراً عن نصرانيتهم المُحرّفة – ولا يعلمون أن الإسلام هو منهج حياة شامل، وهو دين الله الوحيد والصحيح غير المحرّف، والمحفوظ بحفظ الله).

ومن أعجب العجب أن داروينياً مثل ريشارد داوكن يصف "الانتقاء الطبيعي" بأنه الخالق المطلق لجميع مخلوقات هذا الكون (انظر كتاب داوكن: صانع الساعات الأعمى! ١٩٩٦). وبحسب آرائه، ففي الفصل النغي صفحة ٢١ يقول: (إنّ "الانتقاء الطبيعي" هو "صانع ساعات أعمى"، وهو أعمى؛ لأنه لا يرى أمامه، ولا يخطط للعواقب، وبلا هدف

في الرؤية. ومع ذلك فإنّ النتائج الحياتية للانتقاء الطبيعي تعمرنا انطباع تخطيط ظاهريّ وكأنه صُنع ساعاتي ماهر، يُؤثر فينا بتصميم وتخطيط زائف). ويتحدى داوكن هنا "تصميم الإله الذكيّ" ويستبدله بعنوان: "تصميم جيّد" (يغيّر كلمة ربّ God إلى كلمة جيد Good–وهو تلاعب لفظي بإنجليزية الكلمتين). وبحسب آراء داوكن، فإنّ الطبيعة تفكر، وتنتقي، وتصمّم، وتخلق؛ وكلّها صفاتٌ لله (ولكن دون ذكر اسمه)؛ هذه الحسّاسية المُفرطة في عدم استعمال اسم الله والتعويض عنه باسم الطبيعة، لا يمكن تفسيرها إلا بمعاناة داوكن المريرة ورفضه ممارسات الكنيسة النصرانية عبر التاريخ.

في الواقع أن الدكتور ريشارد داوكن يفصح عن ذلك في كتابه "وهمُ الإله" (طبعة أنتام بريس، لندن، ٢٠٠٧، صفحة ٣٧) قائلاً:

(ولمُعظم أهدافي... إلاّ إذا صرّحتُ عكس ذلك، فإنّي سأضع النصرانية غالباً في ذاكرتي: فقط لأنها نسخة الدين التي صادفتني معرفتها جيداً).

والعكس صحيح، فإن النصارى والرومان الكاثوليك خصوصاً (من بين جميع الأديان) هم الذين استشعروا وطأة هذا الهجوم، كما ترى ذلك في كتاب "سكوت هاهن" و"بينجامين وايكر": "الإجابة عن الإلحاد الحديث – تفكيك دعوى داوكن ضدّ الإله" (طبعة إيماوس رود الناشر، أوهيو، الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠٠٨، صفحة ٨) وهما يقولان:

(ومن جانبه، فإنّ داوكن يُصرّح أن دعواه ضدّ الدين هي أساساً قضيةٌ ضدّ النصرانية، ونحن بدورنا سنفترض ذلك أيضاً).

أمّا الإسلام البعيد عن داوكن وغيره، فهو منهاج الوسطية بين إفراط الكنيسة وبين تفريط العلم الحديث؛ لأنه دين الله الصحيح والمحفوظ من التحريف بأمر الله. وإنّ العالم الإسلامي هو الذي احتضن العلماء بأطيافهم العديدة والمختلفة؛ بل كان كثير من علماء اللغة العربية والفقه والقضاء الإسلامي أنفسهم أطباءً ومعماريين وعلماء اجتماع وحيوان ونبات (أمثال: ابن رشد الأندلسي الفقيه القاضي الطبيب؛ وابن خلدون الفقيه المؤرخ وعالم الاجتماع؛ والجاحظ عالم اللغة والحيوان)، والجميع يبتدئون كتاباتهم العلمية باسم الله ثم بحمد الله والصلاة على النبيّ محمد رسول الله ﷺ، ومن ثم بالاستشهاد من القرآن والسنة النبوية لدعم مقولاتهم العلمية. ولم يعرف العالم الإسلامي أبداً قضية ازدواجية العلم والدين أو تناقض العلم والدين التي نشأت في الغرب أصلاً عقب محاكم التفتيش الكاثوليكية في قرون أوروبا المظلمة التي نوّرها وأزاح ظلمتها الإسلامُ: دينُ العلم والإيمان. ولم يتعارض الإسلام قط مع العلوم الطبيعية؛ بل كان القرآن ذاته دوماً سبباً للاستلهامات العلمية (وللمزيد راجع إعجاز القرآن في الفصل الثالث).

يضع الإسلام في ذلك خمس قواعد عريضة، يضعها بسلاسة اللغة العربية القرآنية الجميلة، وهي:

١. **كلكم لآدم وآدم من تراب (وحدة الجنس البشريّ بكلّ أعراقه: مونوجينية البشر المستقلة):**

يقف الإسلام سدّاً منيعاً في وجه أي تمييز لأعراق البشر، فالإنسان هو الإنسان أينما كان، والبشر كلُّهم من خلق الله، خلقهم الله من أبوين اثنين ثم تكاثروا وصاروا شعوباً وقبائل متسجمين في بيئات مختلفة وبطرق معيشية متمايزة ولغات مختلفة، من أجل أن يتعارفوا من جديد، ولا يجب أن يتميز أحدهم عن الآخر إلا بفكره وخلقه وثقافته التي يستطيع هو التحكم بها بنفسه (أما لونه وشكله وطوله وهيئته فليس للإنسان أي تحكم فيها). قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣).

ومن حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، خطب في خُطبة الوداع آخر خُطبة للنبي، في أوسط أيام التشريق، فقال: «**يا أيُّها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد: ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**». رواه الإمام البيهقي (٤/٢٨٩)، ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وقال الألباني صحيح لغيره.

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: «**الناس بنو آدم، وآدم من تراب**». رواه أبو داود والترمذي وحسّنه البيهقي

وفي صلاة المسلمين تطبيقٌ عملي يومي لوقوف الناس سواسية أمام الله لا فرق بين أسود وأبيض، لا بين عربي وأعجمي؛ وفي فريضة الحج تطبيقٌ عالمي فريد للمساواة بين أعراق الجنس البشري الواحد في رحلتهم العظيمة إلى بيت الله حيث يجتمع ملايين الحجّاج لأداء فريضة الحج في صعيد واحد وبلباس أبيض واحد. إنّ الغربيين الذين أسلموا وشهدوا فريضة الحجّ (مثل الزعيم الأسود: مالكوم إكس) رجعوا إلى بلادهم مشدوهين بما رأوه من مساواة مطلقة بين أعراق بني آدم، ثم صاروا دعاة متحمسين لدين الإسلام؛ لأنه الوحيد بين جميع الأديان والفلسفات والحضارات الذي أقام هذه المساواة الإنسانية بين بني البشر في عالم الواقع، وللمرة الأولى في تاريخ الإنسانية.

٢. تقويض اساسات التمييز العرقي:

قوّض الإسلامُ كلّ أساسات وأسباب التمايز العرقي، بناءً على لون الإنسان وعلى شكله ومظهره ومزاجه فالحياة ألوان، بل إنّ التنوع والأنواع هي توابل الحياة كما يقال:

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيّب وبين ذلك**». رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي. وقال الترمذي: حسن صحيح.

ويرتبط هذا الحديث بتقرير الله تعالى عن دور الماء في الحياة، ثم عن العلاقة بين ألوان جبال الأرض مع ألوان البشر والثمار والحشرات والحيوانات. ولهذا يشير الله، وفي هذا الموضع بالذات، إلى أنّ العلماء الحقيقيين هم أخشى عباد الله له، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

ويشير الإسلام إلى أن الإنسان بجميع أعراقه وألوانه هو جنسٌ بشريٌ واحد من ذريّة واحدة: ذريّة آدم وحواء، ويُكرر الله تسميتهم بـ «بني آدم» (تدليلاً على وحدة الجنس البشري المنحدر من آدم)، ويشهدهم جميعاً على ربوبيته لهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». رواه مسلم، رقم ٢٥٦٤.

ويستشنع الإسلام مسألة التكبر على أفراد الأعراق الأخرى من بني آدم؛ فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر**» قال رجل: إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «**إنّ الله جميل يحبّ الجمال. الكِبْرُ بَطَرُ الحقّ وغمط الناس**». رواه مسلم، رقم ٩١.

٣. تكريم بني آدم: أي كل الجنس البشري بمختلف أعراقه:

قال الله تعالى في تكريم الجنس البشري بكل أطيافه وأعراقه وألوانه وهيئاته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

ومن هنا كان من بين صحابة النبي محمد ﷺ أبو بكر الأبيض، وبلال الحبشي الأسود، الذي كان عبداً فصار سيّداً في الإسلام (وهو مؤذن الرسول الخاص)، وصهيب الرومي الأحمر من سادات المهاجرين، وسلمان الفارسي الأسمر. (للتوسع: انظر الفصل الثالث).

بل إنّ احترام الإسلام لإنسانية الإنسان أياً كان، بغض النظر عن فكره وثقافته ومعتقده، تؤسس لتسامح ديني فريد في التاريخ كله: فقد جاء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قام لجنازة يوماً، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي. قال: «**أليست نفساً؟!**» متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز ١٣١٢، ومسلم في الجنائز ٩٦١.

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسّسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخواناً**» رواه مسلم رقم ٢٥٦٣.

عن الأعمش بهذا الإسناد: «**لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً**». رواه مسلم، رقم ٢٥٦٣.

ومنع الإسلامُ أتباعه (من أمّة الإسلام وهم من أعراق وألوان شتى)، من السخرية من أي قوم بينهم: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

٤. حقائق الخلق والتطوّر في الإسلام:

ومن المؤسف حقاً أن رجال الدين الغربيين (أمثال: روبرت مالثوس، وفريدريك هيجل، وصمويل مورتون، وديس أكاسيز) كانوا هم الذين نظروا نظرياتهم التي ألهموا بها "شارلس دارون" و"إرنست هيجل"، ومهدت لوضع نظرياتهم في "التطور"، التي بنى عليها مُنظرو العنصرية العلمية (أمثال هربرت سبنسر، وفرانسيس جالتون، وماديسون جرانت، وأدولف هتلر) ومن بعدهم منظرو المادية الديالكتيكية (الجدلية) لـ كارل ماركس وستالين وماوتسي تونج الذين جعلوا "الدين أفيون الشعوب" وأنكروا وجود الله، ونشروا الإلحاد. على هذه الأساسات النظرية جاءت النازية وجاءت الشيوعية لتحوّل البشرية إلى حيوانات تجارب مخبرية، راح ضحيتها الملايين من البشر، وكلُّ ذلك كان بناءً على آراء بشرية ظنية وتوقعات غيبية مستقبلية.

يوثق هارون يحيى في كتابه "خداع التطوّر" (الناشر طه المحدودة. لندن، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠، الصفحة الأولى): أنّ كارل ماركس أوضح بجلاء أنّ نظرية دارون مثّلت القاعدة الصلبة للمادية ومن ثم للشيوعية. ثم إنه أبدى انجذابه لـ دارون كما يظهر ذلك من إهدائه كتابه "رأس المال" وهو أهم مؤلفاته. وكتب إهداءه على النسخة الثانية لكتابه: «من مُعجب مخلص لـ شارلس دارون».

ثم قام الملحدون من أنصار التطور والمادية الجدلية **بخطف مصطلحات الخلق والخليقة، وتحوير مفهوم التطور (بتفريغه من مضمونه الصحيح)** ثم نسب كلّ شيء إليهم في أطروحاتهم النظرية الظنية التي حوّلوها إلى علم كاذب كانت له أخطرُ النتائج على البشرية.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ويقرر الله أن العلم الحقيقي، وعلم (تنظير) المستقبل الغيبي خاصة، لله وحده: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

ويعيب الله على هؤلاء الملاحدة أن علمهم ليس إلا ظناً وعلماً كاذباً: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٦].

إن الإسلام هو دين الله الخالد، والقرآن هو كلام الله، لذا فهو قطعيّ العلم والدلالة؛ وفيه راحة وطمأنينة للنفس، ووسطية في التنظير، وقبل هذا وذاك هو الحق الوحيد المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بلا تحريف. إنّ إيحاء النظرية لا يكمن في تطور الأحياء فحسب، بل في تطور المعاني الأخرى: كالتطور التاريخي لبيجل، والتطور الاجتماعي لسبنسر والتطور العرقي لهتلر وغيره، وتطور السكان فيما يخص المال لـ مالثوس وماركس حتى صار التطور شعاراً أكاديمياً شهيراً: "الحقيقة هي التغيير" فليس هناك شيء ثابت، لا عقائد ثابتة، ولا قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة، لأن كل شيء يتطور: فالذي كان فضيلة في الأمس، يكون رذيلة اليوم، والعكس صحيح. وما كان حقاً في الأمس، يكون باطلا اليوم، والعكس صحيح. وهذا ما يرفضه الإسلام، فعقائد الإسلام وأصول القيم والأخلاق ثابتة، إنما هي الفرعيات والجزئيات التي تتغير، كاللباس والعمارة والتقنيات. ووحدانية الله هي أصل الأصول الثابتة في الإسلام.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والقرآن كلام الله الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

الحث على التأمل في الخلق:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا أمر لنا للنظر في الآثار الدالة على بدايات الخلق وفي الأرض وفي تكوين النفس البشرية، و ن ليس هناك في الإسلام (أو في القرآن الكريم) أي مانع يمنعنا من البحث والتأمل في الخلق. لذا فهنا حث على دراسة الكون والفلك، وعلى دراسة المتحجرات مع دراسة الأرض وطبقاتها، إضافة إلى دراسات الطب البشري.

ولكننا لم نشهد بدايات الخلق هذه، فهي غيب فيما يتعلق بنا، ولا نعرف كيف تم خلق الكون؟

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وإنما نعرفه من القرآن الكريم: كلام الخالق الذي شهده: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

خَلْق الكون وتطوّره:

يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (السجدة: ٤). ولكن ستة أيام ليست هي هذه الأيام ذات الـ ٢٤ ساعة؟ لا؛ لأن أيامنا هذه حسب الدورة الشمسية. ففي بداية الخلق، لم تكن هناك شمس، ولا قمر؛ لأنها خلقت من بعد ذلك. إنما اليوم هنا يعني: المدة التي يحدث فيها شيء معين، مثل أيام العرب في الجاهلية: يوم ذي قار، ويوم البسوس. ويوم البسوس يعني حرب استمرت أربعين سنة سمّاها العرب يوماً. فالأيام الستة التي خلقت فيها الدنيا، ليست أياماً من أيامنا هذه. ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧)، ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (السجدة: ٥). فهي إذن أطوار وعصور قد تصل إلى ملايين السنين، والله أعلم.

ويقرر الله تعالى بداية خلق الكون من كتلة واحدة متماسكة (رتقاء لا خرْق فيها)، ثم تطوّر الكونُ بفصل مكوناته الملتصقة عن بعضها بعضاً بالفتق (أي بالشقّ والفلق) بما يشبه الانفجار الكبير، وذلك في زمن معين في الماضي السحيق؛ ومن ثم يقرر الله تعالى توسّع وتمدّد هذا الكون. ويقرر الله أيضاً أن أصل الأحياء كلها من الماء (انظر تحت).

في علم الكون والأفلاك (الكوزمولوجي)، صارت نظرية ليمايتر المسمّاة "بغ بانغ" big bang في نشأة الكون هي المقبولة والمعوّل عليها. فقد نشر جورج ليمايتر، البلجيكي الأصل، نظريته في مجلة الطبيعةNature العلمية عام ١٩٣١:

(Lemaître: The Beginning of the World from the Point of View of Quantum Theory, Nature» 127 (1931), n. 3210, pp. 706).

كما وصف ليمايتر نظريته أيضاً مثل «بيضة كونيّة انفجرت في لحظة الخلق»؛ واعتقد أن الكون قد توسّع من نقطة ابتدائية، أي تمدد من أصل كتلة حارّة في وقت محدد في الماضي (أفضل القياسات المتوافرة لدينا عام ٢٠٠٩ تعتقد أنها قد حصلت قبل نحو ١٣.٣–١٣.٩ مليار سنة)، ولا زال الكون مستمراً في التوسّع ليومنا هذا. والحقيقة، أنّ المسافة ما بين منظومة مجرّة وأخرى في ازدياد اليوم (وكل الأشياء كانت أكثر تقارباً من بعضها في الماضي). وفي هذا دليل على عدم أزلية الكون وعدم سرمديته.

والقرآن له قصبُ السبق بـ ١٤ قرناً حول حقيقة خلق الكون، وتطوّره بمعنى: فتقه وتوسيعه. يقول الله سبحانه: ﴿ ٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٧). ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

فنحو ٧٢٪ من سطح الأرض مغمور بالماء، ثم إن ٨٠–٨٥٪ من تركيب بروتوبلازم الخلايا من الماء. إن أساس المادة الحية هو سائل أو شبه سائل في حالة مستمرة من الجريان وعدم الاستقرار. والحقيقة أن الحيوانات البرية والفقريات ومنها الإنسان في مراحلهم الجنينية تعوم كالسمكة في السائل المائي في قرار الرحم.

خَلْق الإنسان:

ومن ثم يقرر الله سبحانه "خلق الإنسان ابتداءً" بقوله

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ (الروم: ٢٠).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣٠، ٣١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

ولذلك الأول من طين أو من تراب أو من صلصال يعني العنصر المادي، وفي عنصر آخر هو هذا الذي قال الله عنه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (ص: ٧٢). أي العنصر الروحي.

ثم يقرر الله تعالى حقيقة الزوجية في الخلق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) ظاهر آيات القرآن الكريم يفيد أن الله تعالى خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق من ضلعه حواء، أو من جنسه على اختلاف بين المفسرين. هناك كثير من المفسرين يقولون: خلقت حوء من ضلع آدم وهذا موجود أيضاً في التوراة، في سفر التكوين أن حواء خلقت من ضلع آدم، ولكن بعضهم يستدل على أنّ كلمة من ليست من الجزئية، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١). خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، خلق منها، أي من جنسها ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (النحل: ٧٢)، فمنها: أي من جنسها، لتآلفه ويألفها لتأنس إليه ويأنس إليها، ليسكن إليها.

ويؤكد الله عز وجل أيضاً خلق كلّ شيء ابتداءً من زوجين: ذكر وأنثى، سواء كانوا حيوانات أو نباتات. وهذه لفتة قرآنية علمية فريدة في ازدواجية النبات مثل الحيوان. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣). ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

بل إن قاعدة الزوجية هذه تمتد إلى ما وراء الإنسان والحيوان والنبات، فتشمل جميع المخلوقات على الإطلاق: من الليل والنهار، والشمس والقمر، وقوى الجاذبية والطرد، والذرة تمتاز بقطبيها الموجب والسالب. وفي عالم الروح والمشاعر نرى الزوجية في الخير والشر، والحبّ والبغض، والراحة والعمل، والعدل والرحمة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩).

ويقرر الله أنه هو الخالق المطلق لكل شيء في الكون، وأنه الواحد المطلق الذي يخالف جميع خلقه بصفاته، وباستثنائه من قاعدة الزوجية والإنجاب والولد، فلا يشبهه أحد ولا يشبه أحداً من خلقه، وهو الوحيد الذي يستحق العبادة، فقال عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام ١٠١-١٠٢).

خلق الإنسان الفريد:

إنّ خَلْقَ الإنسان فريدٌ في نوعه بين عالم الحيوان، لا يشاركه فيه أحد:

١- سلسلة الجينوم البشري تختلف عن سلسلة جينوم الحيوان، ولا تدعم نظرية دارون في أصل الكائنات الواحد؛ بل إن الجينات حافظات لنوع الإنسان منذ خلقه، مع استحالة تطور الإنسان بالصفرات من نوع

آخر. ففي بحث علمي: إعادة نظر لعام ٢٠٠٩ عنوانها «التطور الداروني في ضوء علم الجينوم» نشرت في بحث الحامض النووي، يستنتج يوجين ف. كوتن قائلاً: (لا توجد نزعة ثابتة للتطور عند زيادة تعقيد الجينوم (كالإنسان) عبر الطفرة، عكس ما كان متوقعاً من نظريات التطور الشائعة). وتبقى آلية التطور خارج نطاق أي قانون طبيعيّ معروف. وما يُقال عن مشابهة جينوم الإنسان للقرد، فهو تدليس ودسّ السمّ في العسل، لأنه شبهٌ سطحيّ غير جوهريّ، ولا يختلف كثيراً عن مشابهته باقي الحيوان الأخرى.

٢. انتصاب القامة وانعدام الذنب وتحرر الطرفين العلويين في الإنسان (لضرورة الحركة).

٣. تقابل إبهام اليد مع الأصابع الأخرى، الأمر الذي مكن الإنسان من القيام بحركات دقيقة جداً كالكتابة، وفن الخطّ، والطباعة بلوحة مفاتيح الآلة الكاتبة أو الحاسوب، والرسم، والعزف الموسيقي، وتحرير القميص، وهلم جراً. لذا فإنّ فقدان الإبهام في حوادث المصانع يعادل فقدان ٥٠–٦٠٪ من وظيفة اليد الفسلجية الكلية (لأجل التعويض الطبي العدلي)، في حين أن فقدان كل إصبع من الأصابع الأربعة الأخرى يُمثل فقدان ١٠٪ من وظيفة اليد الفسلجية الكلية فقط.

٤. الشكل الهندسي الفراغي للجمجمة ولحبالها الصوتية مما يجعل الإنسان ينطق بالأحرف والكلمات ليكوّن ويستنبط اللغة التي تشكل أساس تطوره الاجتماعي، مع قابليته للقراءة.

٥. حجم الدماغ والنمو غير العادي للقشرة الدماغية تمكن الإنسان من التحكم وكبح السلوك البشري بحسب القيم والأخلاق التي يؤمن بها ذلك الإنسان. إنّ القشرة الدماغية البشرية أكثر تعقيداً من أي حيوان؛ فهي تؤدي وظائف متعددة، مثل القراءة، والتأمل، والتخيل، والتفكير، والاعتقاد. وهذه الوظائف توصف بمجملها العقل البشري.

٦. روحانية الإنسان (الضمير، والتقوى، والتعبّد) ومشاعره (الإنسان يبكي ويضحك). لقد كانت الروحانية هي العامل الفاصل بين "والاص" وبين "داروِن". فبالرغم من أنّ والاص كان يؤمن بالانتقاء الطبيعي، إلا أنه كان روحانياً. وأصرّ على أنّ الانتقاء الطبيعي لا يستطيع أن يفسر نبوغ الرياضيات، والفن، والموسيقى، إضافة إلى تأملات الغيبيات لما وراء الطبيعة، والموهبة، والفكاهة. ثم إنّ والاص آمن أن الانتقاء الطبيعي غير كافٍ لتفسير تطور الضمير. وأخيراً، قال: إن هناك شيئاً في «عالم الروح غير المرئي» قد تداخل في التاريخ ٣ مرات على الأقل:

(١) لأول يكمن في خلق الحياة من المادة غير العضوية.

(٢) لثاني يكمن في إدخال الضمير في الحيوانات الراقية.

(٣) لثالث يكمن في توليد وتكوين الملكات العقلية في الجنس البشري.

ثم إنه اعتقد أن السبب الأساسي في هذا الكون يكمن في تطوير الروح الإنسانية. وأقلقت هذه الأفكار داروِن كثيراً، وجادل مدعياً أن المناشدات الروحية غير ضرورية، وأنّ "الانتقاء الجنسي" يستطيع بسهولة شرح الظواهر العقلية غير المتكيّفة. كان انتصار والاص العلني للروحانية هو الذي آزمّ العلاقة بينه وبين علماء آخرين كانوا أصدقاءه في الماضي، لأنهم أسسوا أيديولوجياتهم على أساس ماديّ محض، مثل هنري بيتس، وتوماس هكسلي، وداروِن، الذين شعروا أن والاص قد صار ساذجاً بإفراط!!! لاحظ المؤامرة المبيتة لإقصاء والاص بالرغم من أنه على حقّ، وبرغم أنه أصلاً هو صاحب نظرية الانتقاء الطبيعي!

رزق الإنسان وتسخير السماوات والأرض للإنسان:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) فخلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض وخلق في الأرض ما يحتاج إليه هذا الإنسان.

فيكون هذا مخلوقاً خليفةً قصداً، ويكون هذا مخلوق لخدمة الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (الجاثية: ١٣) فالمسخّر والمسخّر له كلاهما من خلق الله.

ثم ضمن الله رزق جميع المخلوقات وفيهم مجموع البشر بشتى أعراق بني آدم: قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢-٢٣). ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤). ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠). ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١). وفي هذا تفويض كامل لنظرية مالتوس في قلة موارد الغذاء بالنسبة إلى ازدياد السكان.

حقائق التطوّر الصحيحة:

لكن الله أيضاً يقرر حقيقة التطور الصحيح بمعنى «التطوّر الجنيني» في عرضه القرآني البديع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٢-١٤).

وليس التشابه في بعض الأطوار الجنينية للحيوانات دليلاً (كما قال هيجل، الذي زوّر رسومها) على تطور البالغين من هذه الحيوانات من بعضها بعضاً.

ويقرر الإسلام أيضاً حقيقة «تطوّر أعمار الإنسان» من المولد إلى اللحد، مروراً بتطور مراحله من الطفولة إلى البلوغ (وشدة البلوغ) إلى الشيخوخة (أو الكهولة) حتى الوفاة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ﴾ (الحج: ٥). ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر: ٦٧).

ثم إنّ الإسلام يقرر «أطوار حياة الإنسان بين الدور الأربعة» من طور الجنين المخلوق في رحم أمه، إلى دار الحياة الدنيا مع رزقه، إلى دار البرزخ وحياة القبر (من تاريخ موته حتى يوم القيامة)، وأخيراً إلى دار الخلود في الحياة الآخرة (إمّا في الجنة أو في النار). وفي هذا دليل على عدم فناء الروح (بعد خلق الإنسان ونفخ الروح فيه). فيقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٤٠).

بل إن الإسلام يشير إلى «التطوّر المعكوس» بما يُناقض نظرية التطور الداروني، فينصّ على طول قامة آدم عند خلقه، ومن ثم تناقص أطوال بني آدم إلى ما نحن عليه اليوم من الطول (دون تغيير في الخلقة والشكل): فعن أبيّ بن كعب، قال: (إنّ الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثيرَ شعر الرأس، كأنه نخلة سَحوقٌ. فلما ذاق الشجرة سقط عنه

لباسه، فأوّل ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعرهُ شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفرّ، فلما سمع كلام الرحمن، قال: يا ربّ لا، ولكن استحياءً). رواه ابن أبي حاتم ١٢٩/١، وبين كثير في تفسيره. والسحوق من النخل هي الطويلة، جمعها سُحُق.

وهذا يعني أنّ كل قرن لاحق كان طول أجساد بنيه أقصر من القرن الذي قبله حتى انتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقرّ الأمر على ذلك.

ولعل أطوال بني آدم العملاقة آنذاك لها حكمة: لكي تتناسب مع أطوال حيوانات الديناصورات في حينها (والمنقرضة اليوم كانقراض العمالقة من بني آدم). فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**خلق الله آدمَ وطوله ستون ذراعاً، ثم قال اذهب فسلمْ على أولئك الملائكة فاستمع ما يُحيّونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكلُّ من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلقُ ينقص حتى الآن**». رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء.

محاولات التوفيق بين الإسلام ونظرية التطوّر:

وأما ما فسر به قول الله تعالى على أنه تأييد لنظرية التطوّر الداروني: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فمعناه كما جاء في تفسير ابن كثير: (قيل: معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ويحيى بن رافع، والسدّي، وابن زيد).

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] فليس في هذه الآية دليل على أن الحيوانات قد خلقت جميعها متطورة من مخلوق واحد، والأظهر أن أنواع الدوابّ خلقت مباشرة وباستقلالية عن بعضها بعضاً. وفي تلك الآية الرائعة عرضٌ بديع مدهش لحقيقة أن الماء هو أصل للحياة، مع تصنيف مُبسطٌ جميل للحيوانات. إنّ آيات كهذه كانت دوماً مصدر إلهام لعماء الحيوان في الإسلام (انظر تحت).

أما الآية التي تطرقت إلى المسخ الذي جرى لبعض من بني إسرائيل بشهادة شهود من بني إسرائيل فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

فإنها لا تعيد أنصار التطوّر لأن الإنسان كان موجوداً أصلاً قبل المسخ وبعده، إضافة إلى انعدام نسل الممسوخ: فقد أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مُسخ؟ فقال: (إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك). وهذا نصّ صريح صحيح، رواه عبد الله بن مسعود، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر.

علماء الإسلام هم الروّاد الأوائل في كشف حقائق التطوّر الصحيحة:

وضع الإسلام حقائق الخلق والتطور، ومن ثم أطلق العنان لحرية التفكير البشري ولتجاربه واكتشافاته بحسب هذه الحقائق كيلا يشتطّ الإنسان في رؤاه وفي نظرياته. وكان للغة العربية المباركة باعٌ طويل في تعبير عبقرة الإسلام عن اكتشافاتهم الجديدة.

لقد كانَ علماءُ الإسلام بحقّ من أوائل من اهتم بعلوم الحيوان والنبات، بل إنّ علماء الإسلام كان لهم قصبُ السبق في مفاهيم «التطوّر» الصحيحة، قبل لامارك وداروين وهيجل بقرابة ١٢–١٣ قرناً، عن طريق تجاربهم العملية

ومشاهداتهم الخاصة، مُسترشدين باستنباطاتهم الإسلامية باستقراء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، ثم الاستعانة بآراء ذوي الشأن والاختصاص والاستشهاد بالأمثال العربية، ولم يؤدي ذلك قطّ إلى إلحاد بالدين، ولا إلى جحود وجود الخالق.

١. فمفهوم «الصراع من أجل البقاء» (قبل مصطلح داروِن: البقاء للأصلح) ذكره **الجاحظ** في كتابه «**الحيوان**».

٢. وللجاحظ نظرته في التطور بمعنى تكوين أنواع جديدة بألوان وجلود جديدة تحت تأثير التكيّف مع المناخ والانسجام مع البيئة المحيطة.

٣. ثم إنّ «استحداث أنواع جديدة» بسبب التهجين المستمر قد ذكره الجاحظ كما ذكره **ابن قتيبة الدينوري** بتوسع.

٤. و**ابن باجه** يعدّ الإنسان الحيوان الناطق والأفضل.

٥. كذلك فإنّ مفهوم «تدرّج تكوين الكائنات» ذكره **ابن خلدون** أيضاً في مقدمته (قبل مصطلح داروِن: التطور بالانتقاء الطبيعي).

٦. وتكلم **جلال الدين الرومي** عن التطور الروحاني.

٧. وتكلم **ابن طفيل** عن تطور المعرفة البشرية.

أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بـ **الجاحظ** (لجحوظ عينيه) المولود بالبصرة عام ١٦٠هـ/٧٧٥م والمتوفى ببغداد عام ٢٥٥هـ/٨٦٠م ألف موسوعة كتاب «**الحيوان**» الرائعة في ٧ أجزاء كبيرة، بلغة عربية فصيحة جميلة ومفردات هائلة، تحوي الكثير من النوادر، والأوصاف الشعرية، والأمثال العربية، وصف الجاحظ فيها أكثر من ٣٥٠ مجموعة من مجموعات الحيوانات المختلفة، وهي شهادة على حجم المفردات العربية الهائلة، ويُعدّ الجاحظ بحقّ أوّل عالم حيوانٍ عربيّ مسلم. عاد الجاحظ إلى البصرة بعد أن قضى ٥٠ عاماً من حياته في بغداد. وتُوفي في البصرة عام ٨٦٨ نتيجة سقوط أكداسٍ من الكتب على رأسه في مكتبته الخاصة. ولعلها موتة تليق بكاتب.

ألف العلامة **عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ولد ٢١٣هـ وتُوفي ٢٧٦هـ) كتاب «**عيون الأخبار**» يتحدث في جزء كبير منه عن الحيوان بمشاهدات وآراء اصيلة.

ثم جاء **ابو بكر بن باجه الأندلسي** (ولد في سراقوزة في إسبانية–وتُوفي ٥٢٩هـ/١١٣٨م في فلس في المغرب) بمؤلفه: «**كتاب الحيوان**». عمل ابن باجه وزيراً قرابة ٢٠ عاماً عند يحيى بن يوسف بن تاشفين (الأخ الثاني لسلطان المرابطين يوسف بن تاشفين) المتوفى عام ١١٤٢م في المغرب.

وجاء بعده: **أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني**، المولد في قزوين والعربي الأصل (٦٠٠هـ–٦٨٢هـ) وكان مختصاً بالأدب ثم قام بتأليف «كتاب **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**» عام ٦٦٩هـ/٢٧٠ م: بالرغم من النكبة الكبرى بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد هولاكو (أهلكه الله)، ثم قام بإهداء كتابه هذا إلى عطا الله ملك الجويني وزير هولاكو الذي كان يلطف به، ومن ثم توفي كلاهما عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.

وعلى خطا الجاحظ، جاء العالم **كمال الدين الدميري** (٧٤٢هـ–٨٠٨هـ/١٣٤١م–١٤٠٥م) مؤلف كتاب «حياة الحيوان الكبرى».

أمّا **ابن خلدون** (٧٣٢–٨٠٨هـ/١٣٣٢–١٤٠٨م)، فهو أول من أشار في "مقدمته" إلى ظاهرة «**تدرّج التكوين**» في المخلوقات، ويربطها بتصميم الخالق المصوّر المبدع.

طابع بريدي يحمل صورة الجاحظ

لعل الجاحظ هو أول من أشار إلى مفهوم "سمبيوسيس" أي العايش والتكافل في عالم الحيوان، مستقرئاً ذلك من القرآن الكريم (أي تسخير الله الطبيعة لخدمة الإنسان، واتخاذ الخلق بعضهم بعضاً سخرياً)، فقال الجاحظ في الجزء الأول من كتاب الحيوان ص ٣٦:

"ثم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سُخر له. فادناهم مُسخرٌ لأقصاهم، وأجلهم مُيسّرٌ لأدقهم".

ونرى انطبيق المعاصر لقاعدة التكافل عند الإنسان في مصطلحات: "الاعتماد المتبادل بين الناس"، و"عمل الفريق"، و"العمل الشبكي"، وأنّ "المرء ليس جزيرة نائية".

والجاحظ قرر أفضلية الإنسان (الحيوان المفكر الناطق) على جميع الحيوان. ولعل الجاحظ هو أول من نظر لتأثير البيئة في الحيوانات، وكشف عن نظرية مبكرة للتطور عن طريق التكيّف للبيئة. وكان الجاحظ أيضاً نصيراً لـ "حتمية تأثير البيئة" وفسر كيف أن البيئة هي التي تحتم الصفات الفيزيائية (الطبيعية) للساكنين من أفراد مجموعة معينة. واستخدم نظرياته حول الصراع للبقاء وحتمية البيئة لتعليل نشأة ألوان الجلد البشري المختلفة، والجلد الأسود خصوصاً، الذي اعتقد أنه نتيجة تأثير البيئة. درس الجاحظ تأثيرات البيئة في فرص الحيوان للبقاء، وهو أول من وصف "الصراع من أجل البقاء"، (السالف للانتقاء الطبيعي) من أجل الحصول على مصادر الغذاء، ومن أجل تفادي أن يؤكل من قبل الآخرين، ومن أجل التوالد. وناقش تأثير العوامل البيئية في الكائنات واضعاً نظرية "التطور بالتكيّف" لتطوير صفات جديدة لتضمن لها البقاء حيّةً، متحولة بذلك إلى أنواع جديدة. والحيوانات التي تبقى وتتوالد هي التي تتمكن من نقل صفاتها الناجحة بالتوريث إلى ذريتها. وأسهب الجاحظ بتعليقاته النفيسة حول تهجين الحيوانات لتوليد أنواع جديدة، ومن ثم صرح أن بعض هذه الحيوانات المهجنة يستطيع التوالد. وتكلم الجاحظ في تدجين الحيوانات الوحشية كالذئب الذي يغلب أحياناً طبعُه الوحشي تطبعه بعد التدجين.

بل إنّ الجاحظ هو أول من ناقش مفهوم "سلسلة الغذاء" رابطاً إياها بـ "الصراع من أجل البقاء"، ففي فقرة بديعة (في الجزء السابع ص ٤٩٥-٤٩٦) قال:

"وتخرج البعوضة لطلب الطعم. والبعوضة تعرفُ بطبعها أنّ الذي يُعيشُها الدمُ، ومتى أبصرت الفيل والجاموس، وما دونهما، علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاءً، فتسقط عليهما، وتطعنُ بخرطومها، ثقةً منها بنفوذ سلاحها، وبجومها على الدم. وتخرج الذبابة ولها ضروبٌ من المطعم، والبعوض من أكبر صيدها، وأحبّ غذائها إليها... وليس لجميعها بدّ من الطعم، ولا بد للصائد أن يُصطاد. وكلّ ضعيف فهو يأكل أضعف منه، وكلّ قويّ فلا بدّ أن يأكله من هو أقوى منه، والناس بعضهم على بعضٍ شبيهٌ بذلك، وإن قصروا عن درك المقدار. فجعل الله عزّ وجل بعضها حياةً لبعض، وبعضها موتاً لبعض".

وهكذا يرسم الجاحظ صوراً متوازنة في الطبيعة بين ظاهرة التعايش (الإيجابي)، وبين الصراع من أجل البقاء (السلبي). وفي كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري يتوسع المؤلف في نظرته عن تكوين أنواع جديدة من الحيوان عن طريق التهجين المستمر فيقول:

"إن الضبعان ببلاد الحبشة يسفد الناقة فتجيء بولد خلقه بين الناقة والضبع، فإن كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها زرافة. وسميت زرافة لأنها جماعة وهي واحدة كأنهم جمل وبقرة وضبع: والزرافة في كلام العرب الجماعة".

ولابن قتيبة مشاهدات دقيقة في الحيوان فيقول مثلاً: (الحيوانات التي تضيء عيونهم في الليل وقالوا: العيون التي تضيء بالليل عيون الأسد والنمور والسنانير والأفاعي).

وفي صفات القائد العسكري يستشهد ابن قتيبة بمقولة عظماء الترك:

"القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنّن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب".

العالم الفيلسوف ابن باجه

أمّا «كتاب الحيوان» لابن باجه فهو مستخلصٌ ومطبوع على ضوء مخطوطي أكسفورد وبرلين، تقديم وتعليق: جواد العمارتي، طبع المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م، حيث يقول ابن باجه في ص ١٤٨:

"ومن الحيوان ما لا ذكر فيه ولا أنثى، ومنه ما فيه ذكر فيه ولا أنثى... والحيوان الذي لا ذكر فيه ولا أنثى، فليس نسميه حيواناً كاملاً، بل شبيهاً بالنبات... وأما الحيوان الكامل فكله فيه ذكر وأنثى".

ويقول ابن باجه أيضاً في ص١٨٦: "وبعض هذه الأجزاء الزائدة لا يكون بها تركيب الجسم، بل تكون من خارج تكون كلها من جنس الآلة، كالقرون والريش والأذناب والأنياب. فبعض هذه للوقاية فقط وبعضها للتعيّش كالأنياب. وأعضاء بعض السمك وهي تسمى النواصي (النواشر) والمخالب، وبعضها للجمال كأذناب الطواويس والفراريج والعرف والذنب، وبعضها للحالين كالحواجب فإنها للوقاية وللجمال".

ويقول ابن باجه في ص١٨٩: "والأكمل هو الذي يوجد له جميع الأعضاء الأفضل. فإنّ العظام فيما أعدت له أفضل من الشوك. وكذلك جميع القوى، والإنسان أفضل الحيوان".

وأمّا ابن خلدون فهو أول من استخدم مصطلح «تدرج التكوين» قبل مصطلح "التطور" لداروين بنحو ٥ قرون. و«تدرّج التكوين» لابن خلدون، هو تصنيف لسُلّم تكوين المخلوقات بحسب ترتيب وإحكام التعقيد، دون الدخول في فلسفة جدلية حول التطور، لأن مجرد التشابه بين المخلوقات، لا يعني تطوّرها تكوينياً من ذلك البسيط لهذا المعقد. يقول ابن خلدون في مقدمته (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون. طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت) ص٩٥:

صورة ابن خلدون على طابع بريدي

"ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرّافين وغير ذلك من مدارك المغيب فنقول:

اعلمْ-أرشدنا الله وإيّاك-أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني. وأوّلاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء

ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعدّ إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات أسفل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط؛ وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها.

ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش، وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الرؤية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا).

مولانا الصوفي **جلال الدين الرومي** (١٢٠٧–١٢٧٣م)، هو الشاعر والقانوني التركي الفارسي الأصل الذي عاش في القرن الثالث عشر، والمنشئ لطريقة "الدراويش الدوّارين"؛ ويعرف بالرومي لأنه عاش معظم حياته فيما كان يُحكم سابقاً بإمبراطورية الروم البيزنطيين.

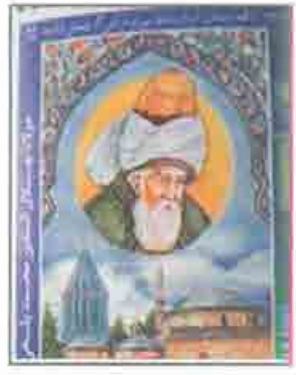

صورة جلال الدين الرومي على طابع بريدي

كان الرومي مفكراً تطورياً بمعنى التطور الروحاني حيث اعتقد أن الروح تتحرك في دائرة، فبعد نزولها من الذات الإلهية، تخضع لعملية تطورية تطير فيها شوقاً إلى البارئ لتكون أقرب وأقرب من الذات الإلهية؛ بل إن كلّ شيء في الكون يخضع لهذا القانون ولهذه الحركة بسبب حافز فطري تكويني (يسميه الرومي بالشوق أو الحبّ) لتتطور بصعودها باحثة عن التعشق مع الذات الإلهية مصدرها التي خرجت منه أصلاً. والتطور من الحيوان إلى الكائن الإنساني هو مرحلة واحدة في هذا التطور الإنساني (انظر تحت). ويؤمن الرومي أن هناك هدفاً محدداً لهذه العملية: الوصول إلى الله. فالله، عند الرومي، هو المصدر وهو الهدف لكلّ الوجود.

ولا ينبغي عدُّ الرومي أحد المؤمنين بالخلق والتطور البيولوجي. فالرومي عاش قبل ٦ قرون من داروين، وكان أقل اهتماماً بالنظريات العلمية. لذا يجب الاستنتاج أنه لا يتعامل مع التطور الداروني ألبتة. ولكنه كان مهتماً بالتطور الروحاني للكائن الإنساني: فالإنسان الذي لا يدرك الله ولا يعيش في كنفه هو أقرب للحيوان، فإدراك الله هو الذي يجعل الإنسان ربّانياً. وبعض الفلاسفة عدّ ذلك مبدأ أفلاطونياً جديداً: هو أنّ الروح عالمية تتحرك عبر عوالم الكائنات المختلفة، وهو مبدأ أدخله إلى الإسلام الفلاسفة المسلمون أمثال الفارابي وابن سينا أصحاب فكرة أنّ الحب أو الشوق هو قوة عاملة بتأثير مغناطيسيّ، تتحرك الحياة عبرها إلى فوق. يقول الرومي:

"إنني متّ كجماد وصرتُ نباتاً،

إنني متّ كنبات، وارتفعت لأكون حيواناً،

إنني متّ كحيوان وصرتُ إنساناً،

لماذا أخاف؟ وأنا أقلّ بالموت؟

مع أنني سأموت كإنسان لكي أحلق في السماء،

مع الملائكة المبروكين: لكنّ حتى من عالم الملائكة

يجب عليّ الرحيل قدُماً: كلُّ شيء هالك إلا وجهه.

وعندما أُضحّي بروحي الملائكية،

فسأصيرُ إلى ما لا يخطر إليه عقلٌ أبداً.

آه، دع عني البقاء! لأن عدم البقاء

سيُعلن أنغام أرغون (آلة الموسيقى)،

أنّ كلنا إليه راجعون".

ويصرّ الرومي على أهمية المراقبة والطاعة للدين، لأنه أصل القرآن الأول، لاعتقاده هيمنة وعلوّ دين الإسلام:

"فرّ إلى قرآن الله، والجأ إليه

الكتاب الذي يأتيك بأحوال الأنبياء

كأسمائك في البحر الصافي لذي الجلالة والإكرام".

فالجاحظ وابن خلدون ومولانا الرومي بالرغم من إشاراتهم إلى التغيير في الطبيعة، لكنهم آمنوا بثوابت معينة، كمفهوم الرب الخالق، الفاطر لهذا الكون، والمصوّر للعوالم المختلفة من النبات والحيوان والإنسان. والأهم من ذلك كله، أنّه لا يوجد مفهوم من مفاهيم الطبيعة التي وضعها الجاحظ أو ابن خلدون أدى إلى إلحاد، أو إنكار وجود الله. على العكس من ذلك، فإنّ مفاهيمهم قد عززت ودعمت الإيمان بالله، الصانع والواجد للطبيعة.

وفي الواقع، صار عادةً لعلماء اللغة العرب المشهورين كالفيروزآبادي صحاب «البحر المحيط» أن يعرّفوا كلمة الطبيعة، بالخليقة. لذا فالطبيعة في فلسفة المسلمين العرب هي مرادف لخلق الله.

إنّ نظرية الجاحظ في التطور هي شيء جديد في تاريخ العلوم، ولم يكن لها سابقة تفكير. وبرغم كلام فلاسفة الإغريق مثل امبدوكليس (في نشأة الكون) وأرسطو عن التغير في الطبيعة وفي النبات والحيوان، لكنهم لم يقوموا مطلقاً بخطّ خطيٍّ في حقل التطور المستقبلي كما قام بها المسلمون. مفهومهم عن التغيير كان بسيطاً لا يتطرق تصريحاً أو تلميحاً إلى مفهوم التطور.

لذا، فنحو ١٠٠٠ سنة قبل أن يقوم عالم الطبيعة البريطاني (دارون) بنشر نظريته في التصور في الغرب النصراني (والكثير من مفاهيم نظريته خطأ)، كان هناك عالمٌ آخر (الجاحظ) يعمل ويفكر على نحوٍ مُتشابه في بغداد الإسلامية، وقد أصاب في نظريته.

ريادية أعمال الجاحظ (على دارون) وتوثيقها بالعديد من الدلائل:

- سبعة وثمانون (٨٧) ورقة مرقومة من كتاب **الحيوان** (تمثل قرابة عشر الكتاب الأصلي للجاحظ) محفوظة في مكتبة أمبروزيانا في ميلان، إيطالية. المجموعة هذه (وهي نسخة من الأصل) تعود للقرن الرابع عشر وتحمل اسم مالكها الأخير، "عبد الرحمن المغربي" سنة ١٦١٥. وتحوي هذه المرقومات من كتاب الحيوان أكثر من ٣٠ رسماً إيضاحياً مصغراً.

- ترجمَ كتاب الدميري (حياة الحيوان الكبرى) جزئياً باللاتينية عن طريق مترجم يهودي اسمه "أبراهام إيكلينسيس" (توفي ١٦٦٤) ونشرَ في باريس عام ١٦٦٧. وهذا الكتاب يحوي العديد من الفقرات المستخلصة من كتب الحيوان للجاحظ.

- قصة "حيّ بن يقظان" لابن طفيل العربي الأندلسي، تحوي فلسفة التطوّر الصحيح للمعرفة البشرية، وكان أول من ترجمها "أدوارد بيكوك" الأب (١٦٠٤–١٦٩١) مع ترجمة لاتينية نشرها "أدوارد بيكوك" الابن (١٦٤٨–١٧٢٧) في أكسفورد، عام ١٦٧١ (الطبعة الثانية، أكسفورد كانت عام ١٧٠٠). تعدّ قصة "حيّ بن يقظان" لابن طفيل الأندلسي تحفة ورائعة أدبيّة عالميّة، ومنعطفاً كبيراً لأنها وفقت بين الدين والفلسفة، ومزجت بين الطبّ والمعرفة. ولهذه القصة العربية الإسلامية أصداء عالمية تجاوزت كلّ الحدود اللغوية والجغرافية لبلدان العالم، لذا فهي جديرة ببعض الإيضاح.

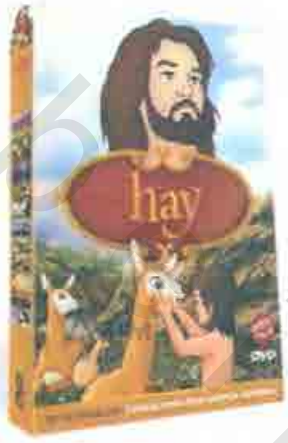

ابن طفيل أو أبو بكر محمد بن طفيل الأندلسي (١١٠٥–١١٨٥م) (باللاتيني اسمه: أبو باسر بن توفيل؛ بالإنجليزية: أبوبيكر بن توفيل). وكان في الستينيات من عمره عندما التقى ابن رشد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م. ولد في وادي آش (كوادكس)، وهي قرية صغيرة شمال شرق غرناطة، وتوفي في المغرب عام ٥٨١هـ/١١٨٥م وهو يبلغ ٨٧ من عمره. ويعدّ ابن طفيل ثاني أعظم فيلسوف مسلم في الغرب، الأول هو ابن باجه (أفينبيس كما يعرف في الغرب). كان ابن طفيل أمين سر حاكم غرناطة، ثم صار وزيراً وطبيباً عند أبي يعقوب يوسف، سلطان الموحدين لبلاد الأندلس. وقد قدّم ابن طفيل عام ١١٦٩م الفيلسوف ابن رشد (أفيروس) وزكاه للخليفة ليكون خلفه في المستقبل (انظر تحت).

وكان ابن طفيل شاعراً عربياً مفوهاً ومن شعره "الأرجوزة في الأمراض وعلاجها" والقصيدة التي يحرض بها المسلمين على الجهاد في الحملة التي أعدها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين لنجدة المسلمين في الأندلس وفيها يقول:

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الأموال إلا من القنا ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب

ومنها:

ألا فابعثوها همّة عربية ... تحفّ بأطراف القنا والقواضب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبغي خلاص جميعكم ... دعاءً بريئاً من جميع الشوائب
بكم نصرُ الإسلامُ بدءاً، فنصرُهُ ... عليكم، وهذا عوده جدّ واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به ... ولا تغفلوا إحياء تلك المواهب

ابن طفيل هو مؤلّف كتاب «حي بن يقظان»، ويُعرف أيضاً في الغرب بأنه "الفيلسوف الذي علّم نفسه" وهي رواية فلسفية إستعاريّة استلهمها من ابن سينا ومن الصوفية متجاوباً مع كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة". وتظهر

واحدة من اهتمامات الفلاسفة المسلمين الأساسية (ثم المفكرين النصارى المتأخرين) بالتوفيق بين الفلسفة والوحي الإلهي. ويتحدث ابن طفيل عن قصة الطفل الوحشي الذي علم نفسه، والذي ربّته غزال أمّ وعاش وحيداً في جزيرة غير مأهولة في المحيط الهندي. وبعد موت أمّه الغزال في أثناء حياته، قام بتشريح جسدها، وأجرى تشريح الجثة الميتة في محاولة لمعرفة ما حدث لها. واكتشافه أن موتها كان بسبب فقدان الحرارة المتأصلة منها (أي الروح) هو الذي استحثه "على طريق البحث العلمي"، واكتشاف الذات، ومن دون الاتصال مع أي كائن بشري آخر، ومن ثم اكتشف الحقيقة النهائية عبر عملية نظامية في تحقيق الأسباب. وأخيراً اتصل "حي" بالحضارة والدين عندما التقى بمنبوذ اسمه "أسال". ثم إنه قرر أنّ بعض زخارف الدين، مثل الصور (الأيقونات والأصنام) والتوكل على بضائع مادية قد تكون ضرورية لجماهير الناس من أجل أن يحيوا حياة محترمة. لكن الصور والبضائع المادية تمثل تلهية عن الحقيقة ومن الواجب التخلي عنها من قبل الذين يدركون أنها تلهية. ابن طفيل رسم اسم القصة ومعظم شخوصه بناءً على عمل سابق لابن سينا. لكن كتاب ابن طفيل لم يكن تعليقاً على، ولا مجرد إعادة رواية ابن سينا؛ بل كان عملاً مبتكراً وجديداً قائماً بذاته.

إنّ هذه القصة الروائية سبقت كلاً من قصة "روبنسون كروزو" لـ دانيال دوفو، وكتاب "إيميل أو عن التعليم" لـ جاك روسو. إنها تخبر عن طفل ربته غزال ونما بمعزل كامل عن البشر. ففي ٧ مراحل من ٧ سنين لكل مرحلة تمكن "حي" عبر تمرين وتدريب ملكاته ووحده من أن يتدرّج في جميع مراحل المعرفة البشرية. إنّ قصة حي بن يقظان قد نسخت من قبل «إدجار رايس بوروز» في قصة طرزان: الطفل الذي ترك في جزيرة استوائية غير مأهولة حيث تبنته وربته أنثى الدّب ثم نما الطفل مع الحيوانات في الغابة وصار رجل القوة الكبيرة والحركة في الأدغال وعاش مع القرود (لاحظ أنّ اسم طرزان هو تحوير لاسم يقزان أو يقظان). ثم إنّ قصة حيّ بن يقظان قد حوّرت إلى قصة متأخرة وهي "كتاب الأدغال" وبطلها "موغلي" من تأليف روديارد كبلنك، والقصة تتحدث أيضاً عن طفل مهجور في جزيرة استوائية حيث ربته وأطعمته أمه الذئب.

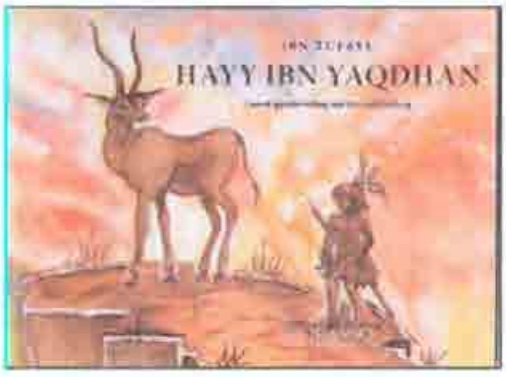

وقد ترجَم **ميراندولا** (١٤٩٤) **وادوارد بوكوك الابن** (١٦٧١) الكتابَ باللاتينيّة تحت اسم «**الفيلسوف الذي علمّ نفسه**». ونشر جورج آشويل أول ترجمة إنجليزية عام ١٦٨٦ اعتماداً على نسخة بوكوك اللاتينية. أول ترجمة إنجليزية من الأصل العربي نشرت عام ١٧٠٨ من قبل سايمون أوكلي، تحت اسم: «**تطور التفسير البشري: معروضة في حياة حي بن يقظان**»، وتبعت هذه الطبعة ترجمتين إنجليزيتين أخريين. ومن ثم ظهر الكتاب في لغاتٍ عدّة. وألهم "الفيلسوف الذي علمّ نفسه" روبيرت بويل، أحد المعارف الشخصيين لـ بوكوك، ليكتب روايته الفلسفية عن بطل في جزيرة سماها: "**عالم الطبيعة الطموح**" وفي باريس، كتب وكيل بوكوك إليه قائلاً إنه: «**أودع نسخة إلى السوربون، وكانوا شاكرين جداً لاستلامها، ومسرورين جداً بها**». نشرت أول ترجمة فرنسية مضبوطة عام ١٩٠٠ من قبل البروفيسور ل. **جوتيير** في الجزائر.

كذلك فإنّ **باروخ سبينوزا** قد قرأ الرواية وحثّ على ترجمتها بالهولندية، وبسرعة نشرت من قبل صديقه **جوهانس بوميستير** عام ١٦٧٢. ثم صدرت ترجمة هولندية أخرى نشرت من قبل **أدريان ريلاند** عام ١٧٠١. وكانت هناك ترجمتان ألمانيتان للرواية، الأولى كانت معتمدة على الترجمة اللاتينية والثانية معتمدة على الأصل العربي. وإحدى هاتين الترجمتين قد قرئت من قبل جوتفريد ليبنز، الذي أطرى عليها كنموذج ممتاز للفلسفة العربية الكلاسيكية.

في عام ١٧٦١، طبعت قصة كروزو في لندن من قبل مجهول، تحت اسم: «**حياة ومغامرات دون أنتوني دي تيزانيو المدهشة**»، وأغلبها نقلٌ وأعيدت صياغته من ترجمة أوكلي لقصة حي بن يقظان. وأعيد نشر ترجمة أوكلي لقصة حي بن يقظان عام ١٨٠٤، من قبل "بول بروني". وبالرغم من أنّ قصة حي بن يقظان قد كتبت أصلاً في إسبانية أسلمة، لكن أول ترجمة إسبانية للرواية لم تنشر حتى عام ١٩٠٠ من قبل **بونس بويجيس** في سراقوزة بإسبانيا.

ثم إن الرواية ألهمت ما يُعرف بمفهوم "تابيولا راسا" من اللاتينية وتعني: «**الصحيفة البيضاء أو السجل الأبيض**» لمأخوذ أصلاً من الحديث النبوي: كل مولود يولد على الفطرة الذي طوّره جون لوك (وهو تلميذ بوكوك) في كتابه «**مقالة تخصّ الفهم البشري**» عام ١٦٩٠. الصحيفة البيضاء تشير إلى "نظرية المعرفة" أن الأفراد يولدون دون محتوى فكري تكويني، وبأنّ معرفتهم إنما تتأتى من التجارب والإدراك. عموماً فإنّ أنصار الصحيفة البيضاء يؤيدون جانب الطبع بالتربية في نقاش (الطبع أم التطبّع)، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بجوانب شخصية الفرد، والجوانب الاجتماعية، بالسلوك العاطفي، والذكاء. ثم صارت "مقالته" هذه واحدة من أهم المصادر الأساسية للمذهب الاستقرائي للفلسفة الغربية الحديثة (القائلة إن المعرفة كلها مستمدة من التجارب)، وأثرت في الكثير من فلاسفة التنوير، أمثال دافيد هيوم، وجورج بيركلي. ثم إن **الصحيفة البيضاء** قد برزت في **التحليل النفسي لـ سيجمند فرويد**. فقد صوّر فرويد أنّ مواصفات الشخصية تتكون عبر ديناميكية التعامل والتفاعل الأسريّ (مثل عقدة أوديب، ... إلخ). وتري نظريات فرويد أنّ باستطاعة الفرد أن يقلل من التأثيرات الجينية والخلقية على الشخصية الإنسانية دون دفاعه عن حرية الإرادة. وفي التحليل النفسي، يُشخص الفرد على نحو كبير بالاعتماد على تربيته.

وأفكار «حي» حول الجوانب المادية في الرواية قد نسخت أيضاً وحوّرت من قبل كارل ماركس في المادية التاريخية. ثم إنّ رواية ابن طفيل قد أنذرت وتنبأت بـ "مشكلة مولينيكس" التي قدّمها وليم مولينيكس إلى جون لوك، حيث ضمّنها الأخير في الطبعة الثانية لكتابه: «**مقالة تخصّ الفهم البشري**».

وهذه المشكلة وصفها ابن طفيل وتكمن في الفرق بين إدراك رجل أعمى واعٍ لبيئته المحيطة بقلبه وأحاسيسه (هذا الألوان التي لا يعرفها إلا بالأسماء كما أخبره بها الناس)، وبين إدراك هذا الرجل نفسه عندما يفتح عينيه بصيراً فهو الآن يرى الأشياء كما تخيّلها ولكن بفرقين اثنين مهمين له، الأول نتيجة للثاني. وهما: الوضوح أي إنها أكثر سطوعاً، ثم الإحساس المرهف الكبير بها.

إنّ لقصة «**حيّ بن يقظان**» تأثيراً عظيماً في كلٍّ من الأدب العربي والأوروبي، بل صارت أكثر القصص المؤثرة سيعاً في كلّ أنحاء أوروبا الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وكان لهذا العمل تأثيرٌ بالغٌ الأثر في كلّ من الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية والفلسفة الغربية الحديثة. وصار واحداً من أهم الكتب التي سبقت ومهدت للثورة العلمية وللتنوير الأوروبي. إنّ الأفكار المعبّر عنها في الرواية توجد بتحويرات مختلفة وبدرجات مختلفة في كتب توماس هوبس، جون لوك، إسحاق نيوتن، عمانويل كانت. وعدّ جرج سارتون الرواية «واحدةً من أكثر كتب القرون الوسطى أصالة (في ابتكارها)». وهناك العديد من الكتاب الأوروبيين الآخرين الذين تأثروا أيضاً بـ "**الفيلسوف الذي علم نفسه**" منهم: **جون واليس، كريستيان هويجنس، جورج كيث، روبيرت باركلي، جماعة الكويكرز، صامويل هارتليب، كارل ماركس، فولتير**.

وفي أمريكا الشمالية، نشرَ "**كوتن ماثر**" كتابه «**الفيلسوف النصراني**» عام ١٧٢١، وذكرَ تأثير «**حيّ بن يقظان**» فيه. بالرغم من ذمّه للمحمديين ليقصد المسلمين-لاحظ النظرة الصليبية للمؤلف- ككفار في نظر المؤلف! لكن "ماثر" ينظر إلى بطل الرواية: "حي" على أنه النموذج لفيلسوفه النصراني المثالي والعالم المؤمن بإله واحد.

وينظر "مالثر" أيضاً إلى «حي» على أنه «النبيل الهمجي» مطبقاً ذلك في معرض كلامه لفهم الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين من أجل تحويلهم إلى النصرانية البيوريتانية (التطهيرية).

من الواضح للعيان، أنّ النهضة الأوروبية والفلسفة الغربية الحديثة هي في حقيقتها قد نمت وازدهرت في ظلال الفلسفة الإسلامية، بالرغم من أنّ غالبية الأعمال العربية قد سُرقت ونسبت إلى سارقيها، بعد إعادة صياغتها، دون أدنى اعتراف بفضل أصحابها. وبخلاف الفلسفة العربية الإسلامية، فإنّ الفلسفة الأوروبية الغربية المُستعيدة صارت غير متوازنة، عرجاء تقف على الأرض بساقٍ واحدة، وعوراء ترى الحياة والعالم بعينٍ واحدة، نظراً إلى أنها مُفككة ومنفصلة عن وجود عنصر الإسلام الروحي والخلقيّ فيها (وذلك بسبب تطورها ابتداءً باتجاهٍ إلحادي مُعادي للكنيسة، كما هو جليّ في نهوض العلم والعلمانية؛ وكذلك بسبب التاريخ القديم الطويل للحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي).

- ❖ **عجائب المخلوقات** (كوزموغرافي: وصف العالم العام) **لزكريا القزويني** قد نشرَ في مجلدين في جوتينجين من قبل **ف. وستينفيلد** عام ١٨٤٨–١٨٤٩؛ ثم إن كتاب «**تلخيص الآثار**» **للبغوي**، وهو ملخص كتاب **القزويني** قد ترجمَ بالفرنسية ونشرَ في باريس من قبل دي جويجنس عام ١٧٨٩ (الكتاب يحوي العديد من أفكار الجاحظ). ثم إنّ أ. ل. دي شيزي قد ترجم عجائب القزويني وقد نشرت ترجمته في ١٨٠٦ (الطبعة الأولى) من قبل **س. دي ساسي**، في كتاب: **كريسيوماثي آراب** (الرياضيات النصرانية العربية).
- ❖ **للصوفي مولانا جلال الدين الرومي** صاحب التطور الروحاني، تأثير في **جوته**، الذي سمّى الرومي "داروني قبل داروين"، لكن التطور الروحي قد يُفهمُ خطأً أحياناً على أنه نظرية استحالة الأنواع، بالرغم من ادّعاء بعضهم تأثير الرومي البليغ في تطوير النظريات البيولوجية.
- ❖ على كل حال، اخترقت علوم الحيوان الإسلامية الغرب مع مطلع القرن السابع عشر. بعض الأوروبيين كان يعرف اللغة العربية وباستطاعتهم القراءة مباشرة من كتب علماء الإسلام؛ فمثلاً، **جرى تكريس دروين نفسه إلى الثقافة الإسلامية في كامبردج تحت مستشرق يهودي يدعى "ساموبل لي"**. وهذا يوضح التأثير الإسلامي في الأوروبيين، وانتقال أفكارهم إلى الغرب.

(إنّ الأعمال الريادية للجاحظ قد وثقت في دراسات عدة، ومنها هذان المصدران بالإنجليزية:

1. **Conway Zirkle** (1941). Natural Selection before the «Origin of Species", Proceedings of the American Philosophical Society 84 (1), p. 71–123
2. **Mehmet Bayrakdar** (Third Quarter, 1983). «Al-Jahiz And the Rise Biological Evolutionism", The Islamic Quarterly. London)

٥. كراهية الجدال الظنيّ لما يخالف حقائق الإسلام القطعية: علمٌ ضارٌ لا ينفع:

هذه هي القاعدة الخامسة. بالرغم من أنّ الإسلام يشجّع على ضرورة التفكير في الكون والخلق والإنسان (كما أسلفنا)، وقد لا يؤمن الإنسان إلا بعد رحلة طويلة يسير فيها من الشكّ إلى اليقين. لذلك فإنّ الله يطالب المسلمين بدعوة الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم باللطف؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ولكن نظراً إلى استفاضة الإسلام في شرح حقائق الخلق والتطور الصحيحة، لذلك فإنّ الإسلام (دين الله الصحيح والوحيد) **القطعي الدلالة** في أمر الخليقة ووحدة الجنس البشري (انظر فوق)، يكره جدال الفلاسفة البشريّ النظريّ **الظني الدلالة** (دونما علم أو دليل في أمر الخلق الذي لم يشهده أحد منهم إلا الله)، ويستهجن

تسليط مدارس الكلام البيزنطية القديمة والحديثة والمُنظرة لما يخالف النصّ القرآني والحديث النبوي لتجعل من الجنس البشري حقلاً للتجارب المخبرية المشؤومة. إنّ فلاسفة التمييز العنصري العلمي مع فلاسفة علوم الإنسان الأوروبية (الأنثروبولوجية) قد حطوا من قدر الإنسان إلى موضع الحضيض، فنظروا نظريات زائفة ووضعوا علوماً ضارة جعلت من الإنسان حيوان تجارب مخبريّ؛ وحين طبّقت هذه النظريات والعلوم الزائفة على أرض الواقع أدّت إلى إبادات للجنس البشري تحت شتى المسميات قديماً وحديثاً من النازية إلى الشيوعية إلى الفلسفة المادية والتطهير العرقي الحديث.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦-٥٧].

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩].

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه الآجري والإمام أحمد والترمذي وقال الألباني: وسنده صحيح. وفيه: أن الذين يضلون بعد الهدى يعاقبون أن يؤتوا الجدل.

وقال الآجري: لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين: لم يُماروا في الدين، ولم يجادلوا وحذروا المسلمين المراء والجدل، وأمروهم بالأخذ بالسنن وبما كان عليه الصحابة. وهذا طريق أهل الحق من وفقه الله عز وجل.

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: إنّ أمّتك لا يزالون يقولون: ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟**». رواه مسلم، رقم ١٣٦.

بل إنّ كلمات هذا الحديث النبوي ومفردات سياق التعبير تدلّ على أنّ المسائلات الجدلية المتواصلة غير مسغوبٌ فيها أبتة، لأنّ الجدال غير المنطقي قد يقود أحياناً إلى تشويش واضطراب فكري.

وحين قرر الله أصل الإنسان، استنكر جداله النظري الظنّي أمام حقائق القرآن القطعية: قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: ٤].

ولطالما كان النبي ﷺ يتعوّذ من الجهل والعلم الضارّ بقوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**».

وكان للغة العربية جولةٌ تقويمية كبرى عندما قام إمام الإسلام المجدد أبو الحامد **محمد بن محمد الغزالي** (١٠٥٨-١١١١م) بكتابة كتابه «**تهافت الفلاسفة**»، أهم كتاب عرفه العالم الإسلامي والأوروبي في نقد الفلسفة الإغريقية ونقد الفلاسفة العرب المتبعين حذوها، من أمثال: ابن سينا، والفارابي، وإخوان الصفا. وعدّ بعضهم هذا الكتاب مَعلم تاريخياً وضربةً قاضية لاستكبار الفلاسفة وادعائهم التوصل إلى الحقيقة في المسائل الغيبية بعقولهم القاصرة. وقد قال الغزالي في مقدمة الكتاب:

الإمام المجدد ابو حامد الغزالي

(أما بعد فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميّز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبّدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين، بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، وهم بالآخرة هم كافرون، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي... وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم... فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكي من عقائدهم طبعهم، تجمّلوا باعتقاد الكفر، تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم، وترفعاً عن مساعدة الجماهير والدهماء، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ظناً أن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال... فأي رتبة في عاله الله سبحانه وتعالى أخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق، المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل، تصديقاً دون ن يقبله خبر وتحقيقاً).

وشنّ الغزالي هجوماً عنيفاً على الرؤى الفلسفية للفلاسفة المسلمين الذين تبنوا الفلسفة اليونانية، وهاجم الفلاسفة في ٢٠ مسألة عدّهم فيها ملحدين أو مرتكبي بدع هم أقرب فيها للكفر من الإيمان، ومن هذه المسائل: إبطال مذهبهم في أزلية العالم (من القدم)؛ إبطال مذهبهم في أبدية العالم؛ بيان تلبّسهم في قولهم: إن الله صانع العالم، وأن العالم صنعه؛ في تعجيزهم عن إثبات الصانع؛ وفي إبطال إنكارهم البعث، وحشر الأجساد، مع التلذذ والتألم بالجنة والنار. قوّض الغزالي ادّعاءات الفلاسفة مستخدماً سلاح المنطق (وهو سلاحهم) للردّ عليهم بسلاحهم وأسلوبهم، ولعلّ الغزالي هو أول شيوخ الإسلام (أو أول فلاسفة المسلمين إن صحّ التعبير) الذين أقاموا صُلحاً بين المنطق وبين العلوم الإسلامية. توسّع الغزالي في شرح المنطق واستخدمه في علم أصول الفقه. وأعلن الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة فشل الفلسفة في إيجاد جواب لطبيعة الخالق، لكنه صرّح: **إن على الفلسفة ان تبقى موضوعات اهتماماتها في المسائل القابلة للقياس والملاحظة** مثل: الطبّ والرياضيات والفيزياء والفلك. وعدّ الغزالي محاولة الفلاسفة في إدراك شيء غير قابل للإدراك بحواس الإنسان منافياً لمفهوم الفلسفة من الأساس.

استخلص الغزالي أنه من المستحيل تطبيق قوانين الجزء المرئي من الإنسان لفهم طبيعة الجزء المعنوي. وعليه فإن الوسيلة المثلى لفهم الجانب الروحي يجب أن يتم بوسائل غير فيزيائية واختار الغزالي طريق التصوف (الحقيقي) للوصول إلى اليقين بوجود الخالق في أثناء الحياة بدلاً من الانتظار إلى ما بعد الموت للوصول إلى الحقيقة.

وهيمن كتاب «**تهافت الفلاسفة**» لأبي الحامد الغزالي الطوسي البغداديّ على العالم الإسلامي وعلى أوروبا (نظام العالم القديم آنذاك) ولم يستطع أحد أن يتصدّى للغزالي إلا بعد قرابة قرنين من الزمان حين قام فيلسوف مسلم آخر هو الفقيه القاضي الطبيب **ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد ابن رشد الأندلسي** (١١٢٦–١١٩٨م) بمحاولة التوفيق بين تعاليم الإسلام وبين حكمة الفلاسفة فكتب كتاباً نحو ١١٨٠م في أشبيلية سمّاه: «**تهافت التهافت**»، حين كان ابن رشد في الرابعة والخمسين من عمره. وابن رشد هو تلميذ ابن طفيل الأندلسي الطبيب الفيلسوف (مؤلّف قصة حي بن يقظان) وهو أيضاً تلميذ كلٍّ من الطبيب ابن زهر وابن باجه الأندلسيين. بالرغم من أنّ أبا الوليد ابن رشد لم يعش زمن أبي الحامد الغزالي ولم يعاصره، ولم يتجادل معه البتة، لكنه ردّ مباشرة على كتاب الغزالي بطريقة الجدل العلمي بذكر النصّ من كتاب «**تهافت الفلاسفة**»، والردّ عليه في كتابه «**تهافت التهافت**».

وانتقد الإمام الغزالي جالينوس الذي ادّعى أزلية الشمس وعدم ذبولها؛ لأن الأرصاد تدلّ على أنها لم تذبل منذ آلاف السنين ولا تفسد. ويعترض أبو حامد الغزالي على رأي جالينوس بقوله: «**وأما التفاته إلى الأرصاد فمحال، لأنها لا تعرف مقاديرها إلا بالتقريب، والشمس التي يقال: إنها كالأرض مئة وسبعين مرة، أو ما يقرب منه ولو نقص مقدار جبال مثلاً، لكان لا يتبين للحس، فلعلها في الذبول وإلى الآن قد نقص مقدار جبال فأكثر، والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك**». كان عقل الغزالي المستنير يهدي القرآن والرسالة المحمدية هي التي مكنته من القول بإمكانية ذبول الشمس؛ لأنّ القرآن يؤكد أنّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

وحين جاء ابن رشد الأندلسي ليردّ على كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي في كتاب ابن رشد "تهافت التهافت" اعترض على مقولة الغزالي في الشمس وأيّد رأي جالينوس. لكن حين جاء العلم الحديث أثبت صحة رأي الغزالي، فالشمس جرم غازي كروي الشكل كبير، أكبر في حجمها من الأرض بأكثر من ١٣٠٠٠٠٠ (مليون وثلاث مئة ألف مرة). وقد تبين عبر أبحاث ودراسات علوم الفيزياء الفلكية أن الطاقة المنبعثة من الشمس ناتجة من الاندماجات الهيدروجينية فهي أشبه بفرن هائل، وفي باطن الشمس تحدث كل ثانية انفجارات تعادل آلاف القنابل الهيدروجينية. ويقدر الفلكيون أن ما مضى من عمر الشمس هو بحدود ٥ مليارات من السنين وتشير الحسابات إلى أن كمية الهيدروجين المتوافرة في الشمس قادرة على إدامة هذا العطاء من الحرارة والضياء مدة تزيد على ٥ مليارات سنة أخرى من الآن إن شاء الله. وفي أثناء ذلك فإنّ الشمس تفقد من كتلتها نحو ٣٦٠٠ طن في الثانية الواحدة.

وللغزالي نظرات رائعة في الأسباب والمسببات وعدم ضرورة تلازمهما كما ادعى الفلاسفة، فيقول:

(فلنعين مثالاً واحداً وهو الاحتراق في القطن مثلاً مع ملاقاة النار فإنا نجوّز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق ونجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار وهم ينكرون جوازه... يدعي الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط وهو فاعل بالطبع... نقول: فاعل الاحتراق يخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه وجعله حراقاً أو رماداً هو الله إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة فأما النار وهي جماد فلا فعل لها).

(نخالفهم في... مسائل الأولى حكمهم أن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة فليس في المقدور ولا في الإمكان لبحسب ظنّ الفلاسفة إيجاد السبب دون المسبب ولا وجود المسبب دون السبب).

أبو الوليد محمد ابن رشد الأندلسي

(وإن المقترنات في الوجود اقترانها ليس على طريق التلازم بل العادات (التي) يجوز خرقها فيحصل بقدرة الله تعالى هذه الأمور دون وجود أسبابها). (وجواز حصول... خرق العادات بخلق المسببات دون الأسباب أو إحداث أسباب على منهج آخر غير معتاد).

(وليتعجب العاقل من طائفة يتعمّقون في المعقولات بزعمهم، ثم ينتهي آخر نظرهم إلى أن ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب لا علم له أصلاً بما يجري في العالم)!!!

كتب ابن رشد ("أفيروس" عند الغربيين) (١١٢٦-١١٩٨م) تفنيده لعمل الغزالي تحت عنوان «**تهافت التهافت**» ودافع فيه عن مبادئ الفلاسفة: وكتب الكتاب بطريقة حوار: يستشهد ابن رشد بفقرات من كتاب الغزالي، ثم يردّ عليها. ولكن هذا الكتاب لم تتقبله جموع المسلمين كتقبلهم لكتاب الغزالي. ابتدأ ابن رشد مهنته بمساعدة أستاذه ابن طفيل

الأندلسي (مؤلف قصة حي بن يقظان) وهو الذي قدمه للبلاط ولابن زهر الطبيب الشهير (أفينزور بالـلاتينية) الذي صار أستاذ ابن رشد وصديقه. وكان ابن رشد تلميذ ابن باجه الأندلسي (أفينبيس)، الفيلسوف المسلم الشهير الذي أثر في ابن رشد (وهؤلاء هم الفلاسفة المسلمون الأربعة في المغرب الإسلامي بحسب الأهمية: ابن باجه، ثم ابن طفيل، ثم ابن زهر، وأخيراً ابن رشد).

في ١١٦٠م صار ابن رشد قاضياً في أشبيلية وخدم في العديد من قضايا المحاكم في أشبيلية وقرطبة ومراكش في أثناء حياته. في نهاية القرن الثاني عشر، وبعد فتح الموحدين للأندلس، انتهى دور ابن رشد السياسي. كانت آراء ابن رشد العقلانية الصارمة تتصادم بعض الشيء مع الآراء الأكثر تقليدية (أي أكثر انسجاماً مع السُنة النبوية) للخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور التي أدت إلى إقصاء ابن رشد، بالرغم من تعيينه مدة كطبيبه الخاص. ولم يُعاد ابن رشد إلى عمله إلا قبيل وفاته، ووفاة الخليفة بقليل. وكرّس ابن رشد بقية حياته في كتاباته الفلسفية.

ترجمَ كتاب «**تهافت التهافت**» لاحقاً بعدة لغات. وعدّ الكتاب مُعلم ابن رشد المهم؛ وفيه حاول التوفيق بين العقيدة الإسلامية وبين الفلسفة (بوصفها خلاصة الحكمة البشرية التي لا ينبغي أن تتعارض مع الدين). ترجم جاكوب أناتولي (يعقوب الأناضولي) العديد من أعمال ابن رشد من العربية بالعبرية في ١٢٠٠. ثم ترجمَ العديد منها لاحقاً من العبرية إلى اللاتينية من قبل جاكوب مانتينو وأبراهام دي بالمز. وترجم كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي مع ترجمة كتاب ابن رشد لكن كتاب «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي قد ترجمَ باللغة الإنجليزية من قبل مايكل مرموره. برغم محاولة دحض ابن رشد في القرن الثاني عشر، إلا أنّ كتاب الغزالي بقي هو الأوسع قراءة وانتشاراً، والأبلغ أثراً وتأثيراً.

جاءت الاستجابة الأقلّ انتقاداً لكتاب «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي أولاً في كتاب كتبه سف ابن رشد وأستاذه: أبو بكر بن طفيل في جزء من روايته الفلسفية العربية: «**حيّ بن يقظان**» (المترجمة باللاتينية والإنجليزية تحت اسم «**الفيلسوف الذي علمَ نفسه**»). وذكر ابن طفيل في روايته تأثير الغزالي عليه، وآراء الصوفية خصوصاً ولكنه كان ناقداً لنظرته ضد فلسفة ابن سينا.

وفي القرن الثالث عشر، كتب ابن النفيس لاحقاً "الرسالة الكاملية في السيرة النبوية" (ترجمت في الغرب باللاتينية والإنجليزية تحت اسم: «**عالمُ الدين الذي علم نفسه**») كاستجابة لـ "الفيلسوف الذي علمَ نفسه" لابن طفيل، وكان مُدافعاً عن كثير من آراء الغزالي.

واستمرت دراسة كتابي «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي، مع ردّه: «**تهافت التهافت**» لابن رشد، في العالم الإسلامي. والواقع أنّ السلطان العثماني محمد الفاتح في القرن الخامس عشر كلف اثنين من كبار علماء عصره بكتابة كتاب يوجز آراء هذين الفيلسوفين العظيمين ومن الذي فاز منهما بالنقاش في نهاية المطاف. قام العالم التركي المسلم **مصطفى بن يوسف البورصاوي** المعروف بـ **خواجة زادة** (المتوفى عام ١٤٨٧م) بدحض براهين كتاب ابن رشد «تهافت التهافت» ودافع عن صحة آراء الغزالي الذي فاز كتابه «**تهافت الفلاسفة**». وكانت هذه المناظرة إشارة أخرى، شهد فيها علماء الإسلام على ضعف الفلسفة البشرية إزاء قوة العقيدة الإلهية.

ومع ذلك كله، فإنّ «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي قد زوّد المسلمين بمناعة ضد الأخطاء القادحة للفلاسفة. لم تخنق الفلسفة في العالم الإسلامي، لكن «**تهافت الفلاسفة**» أثار فضول واهتمام المسلمين في الفلسفة (مع اتخاذ الحيطة اللازمة من شطحات الفلسفة)؛ صار القانونيون لا يخافون أبداً من دراسة أعمال ابن سينا والفارابي، كما يبدو ذلك جلياً في أعمال ابن طفيل وابن رشد.